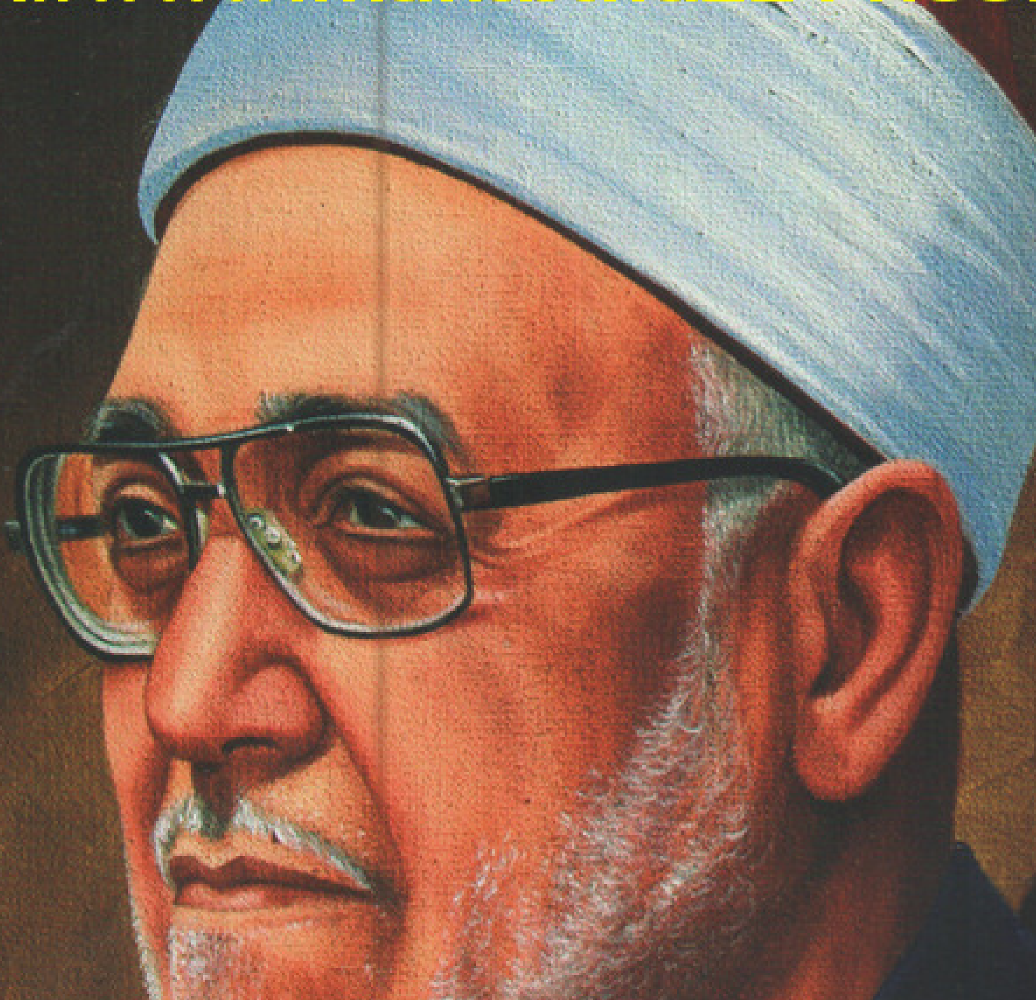


الشيخ

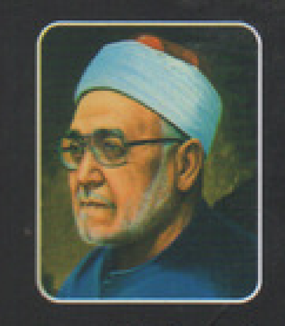
محمد الغزالي

شاهد على العصر



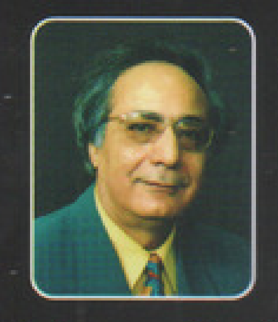
حوار

عمر بطيشة



في هذا الحوار

- تحليل الشيخ الغزالي للنهضة اليابانية.
- الغزالي: نحن تأخرنا بجدارة!
- الغزالي: أبواب الأمل لا تزال مفتوحة أمام ناشدي الخير.
- الغزالي: النهضة الحقيقية لا يصنعها حاكم عسكري!
- الغزالي: القاهرة عاصمة العالم الإسلامي.
- فتوى الغزالي في ملابس النساء.
- الغزالي: مصر تقول الكلمة الأخيرة دائما في تاريخ المنطقة.
- الجلباب الأبيض وحلق اللحية.. فتوى خاصة جداً للشيخ الغزالي.
- الغزالي: هناك فروق بين التقاليد العربية والتعاليم الإسلامية.
- الغزالي: الذين يثيرون معارك من أجل التوافه، فهؤلاء مرضى.
- ما رأي الشيخ الغزالي في التصوير؟
- الغزالي يستعرض رذائل الحضارة الحديثة.
- رأي الشيخ الغزالي في التفسير العلمي للقرآن.
- لماذا يسمي الغزالي واقعنا السياسي بالعواء الديمقراطي؟



الأستاذ عمر بطيشة

- رئيس الإذاعة المصرية الأسبق.
- خريج آداب إنجليزى عام ١٩٦٤ ودبلوم دراسات عليا فى الإعلام عام ١٩٧١.
- قدم العديد من البرامج الإذاعية التي حصدت الجوائز الذهبية، لكن أشهرها "شاهد على العصر" الذى تم نشر حواراته فى هذه السلسلة من الكتب.
- قدم "شاهد على العصر" في البرنامج العام بالإذاعة المصرية من يناير ١٩٨٣ الى مارس ٢٠٠١ حينما انشغل عنه برئاسة الإذاعة المصرية وجمعية المؤلفين والملحنين.
- كما قدم "شاهد على العصر" تليفزيونيا على شاشة القناة الثقافية من ١٩٩٣ الى ٢٠٠٠.

له ثلاثة دواوين شعريه هى:

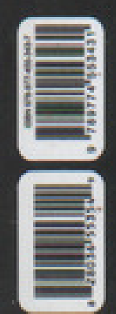
- "الهجرة من الجهات الأربع" عام ١٩٧٠
- "أغنية إليها" عام ١٩٨٧
- "قصائد حب" عام ٢٠٠١

كما ألف عشرات الأغنيات الذائعة لنجوم الغناء فى الوطن العربى.

الجمعة

12/11/2010

الرياض





الشيخ

محمد الغزالي

شاهد على العصر

الشيخ

محمد الغزالي

شاهد على العصر

حوار

عمر بطيشة



الشيخ محمد الغزالي

تقديم

شهد وطننا العديدَ من الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كان لها أثر كبير في تاريخنا المعاصر، تباينت حولها الآراء بين مؤيد ومعارض؛ ولأنه من حق الأجيال الجديدة أن تعرف تاريخ تلك الأحداث المهمة دون تزييف أو تنميق؛ لإيماننا بحق الناس الأصيل في المعرفة، ولأن التاريخ إذا كان مبهمًا أو مزورًا، ترتب على ذلك تشوه في الوجدان القومي يؤثر بصورة حتمية في الحاضر والمستقبل؛ لذا قمنا بنشر هذه السلسلة من برنامج «شاهد على العصر» - الذي كان يقدمه الإذاعي اللامع، الأستاذ: عمر بطيشة؛ رئيس الإذاعة المصرية سابقًا - نعرض من خلالها لشهادة مجموعة من أبرز الشخصيات العامة التي كان لها حضور مؤثر في الساحة الإعلامية، فكانوا بذلك شهود عيان على الفترة التي عاشوا فيها.. وقد أدلى كل منهم برأيه فيما شاهده من أحداث ووقائع، هذا ولم نقتصر في اختيارنا لهذه الشخصيات على فئة معينة

من الأفراد، أو توجه سياسي معين، بل تناولنا شخصيات سياسية، وأدبية، وعلمية، تمثل كافة التيارات الثقافية والسياسية في مصر، وقد التزمنا الحياد التام، وتوخينا الصدق والأمانة في عرضنا لهذه الآراء كما أدلى بها أصحابها؛ لتكون سجلًّا موثقًا لفترة مهمة من تاريخنا المعاصر، آملين أن نكون قد قمنا بإثراء الوعي الثقافي لدى أبناء هذا الجيل.

الناشر

مقدمة

يبرز في هذا الكتاب عالم جليل، من أبرز العلماء الذين شهدوا تقلبات واضطرابات مصر في القرن العشرين؛ لذا فهو يسوق لنا شهادةً شاملة على عصره من كافة نواحيه الثقافية والدينية والاجتماعية والسياسية، وهو في آرائه يمثل رحمة الوسطية التي لا تميل إلى التشدد والتعصب، وإنما يسعى وراء الحق بكل جهده، واضعًا نصب عينيه منهجية الإسلام الرحيمة بالعباد، التي يجد القارئ ظلَّها الظليل في آيات القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وبيانها في أفعال نبينا العدنان ﷺ الذي ما خُير بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه. والذي قال - أيضًا - كما في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه؛ فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة».

إنه يسعى جاهدًا إلى تقرير هذه الحقائق وترسيخها في عقل القارئ والسامع؛ فالدين الإسلامي بعيد كل البعد عن التعصب المذهبي، والتشدد الطائفي؛ فهو دين الوسطية الرحيمة التي تقيم الحق في نصابه.

إنه الشيخ محمد الغزالي الذي يعد - بآرائه وكتبه التي ألَّفها في نواحي الفكر الإسلامي - من أرسخ المفكرين علمًا وأصالة، ومن أعلاهم مقامًا ومقالًا.

ويحاوره في هذا الكتاب الأستاذ عمر بطيشة الذي يثير أهم القضايا والظواهر المنتشرة في مصر، مثل: (تركيز الإنسان على الشكل دون الجوهر - الاهتمام بالفروع دون الأصول - أسباب نهضة الحضارة الغربية - العلم والتفكير فريضة إسلامية - النظافة - الأزياء في الإسلام - مصر بلد التيارات).. وغيرها الكثير من القضايا التي يعرض لها المفكر الإسلامي الشيخ محمد الغزالي بأسلوب عذب رقيق، وبيان واضح دقيق، وفكر أصيل يقدم علاجًا يمتزج فيه حاضر الأمة بماضيها التليد. فحري بنا أن نستمع بل نكون كلنا آذانًا مصغية لسماع شهادة هذا العالم الإسلامي الكبير.

الشيخ محمد الغزالي

- ولد الشيخ محمد الغزالي بن أحمد موسى السقا في ٢٣ سبتمبر ١٩١٧م في قرية نكلا العنب مركز إيتاي البارود - محافظة البحيرة.

- حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره ثم التحق بمعهد الإسكندرية الديني الابتدائي، ثم حصل على شهادة الكفاءة (٣ سنوات) بعد الابتدائي، ثم حصل على الثانوية الأزهرية سنتين بعد الكفاءة، ثم التحق بكلية أصول الدين في جامعة الأزهر سنة ١٩٣٧م، وتخرج فيها سنة ١٩٤١م، متخصصًا في الدعوة، وحصل على درجة التخصص في التدريس وهي تعادل درجة الماجستير سنة ١٩٤٣م من كلية اللغة العربية.

- تزوج الشيخ الغزالي وهو طالب بكلية أصول الدين ورزق بتسعة أولاد.

- التقى بالشيخ حسن البنا في نهاية مرحلة تعليمه الثانوي الأزهري بالإسكندرية سنة ١٩٣٥م، وقد ظهر أول مقال له وهو طالب في السنة الثالثة في الكلية.

- بعد تخرجه عمل إمامًا وخطيبًا في مسجد العتبة الخضراء، ثم تدرج في الوظائف حيث صار مفتشًا على المساجد، ثم واعظًا، ثم وكيلًا لقسم المساجد، ثم مديرًا للمساجد، ثم مديرًا للتدريب فمديرًا للدعوة والإرشاد.
- ظل فترة طويلة خطيبًا لمسجد عمرو بن العاص بالقاهرة. وقضى في معتقل الطور عامًا سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م، كما قضى في سجن طرة فترة من الزمن.
- في سنة ١٩٧١م أعير للمملكة العربية كأستاذ في جامعة أم القرى بمكة المكرمة كما أعير إلى كلية الشريعة بقطر، وبعد عودته عُيِّن وكيلًا لوزارة الأوقاف بمصر، كما تولى رئاسة المجلس العلمي لجامعة الأمير عبد القادر الجزائري[1] لمدة خمس سنوات وكانت آخر مناصبه.

---

(١) عبد القادر الجزائري ولد عام ١٨٠٧م، وتوفي عام ١٨٨٣م وهو أمير، مجاهد، من العلماء الشعراء البسلاء، لما دخل الفرنسيون الجزائر بايعه الجزائريون وولوه القيام بأمر الجهاد، فنهض بهم، وقاتل الفرنسيين خمسة عشر عامًا.

- للشيخ الغزالي مؤلفات تجاوزت الستين مؤلفًا، منها:

- الإسلام والأوضاع الاقتصادية.
- الإسلام والمناهج الاشتراكية.
- الإسلام والاستبداد السياسي.
- الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين.
- من هنا نعلم.
- تأملات في الدين والحياة.
- عقيدة المسلم.
- التعصب والتسامح.
- في موكب الدعوة.
- ظلام في الغرب.
- جدد حياتك.
- كيف نفهم الإسلام.

- نظرات في القرآن.
- مع الله (دراسات في الدعوة والدعاة).
- معركة المصحف.
- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة.
- هذا ديننا..
- حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي.
- الجانب العاطفي في الإسلام.
- الإسلام في وجه الزحف الأحمر.
- هموم داعية.
- مائة سؤال في الإسلام.
- مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه.
- سر تأخر العرب المسلمين.
- القومية العربية.

- الحق المر «ستة أجزاء».
- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم.
- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة.

- توفي الشيخ الغزالي في الرياض يوم ٩/ ٣/ ١٩٩٦م، ونقل إلى المدينة المنورة، ودفن في مقابر البقيع.

نص
الشهادة والحوار

إن الحوار الدائر الآن بين مفكري المسلمين يتركز أساسًا حول أهمية تحديد الأولويات في التوجهات الدينية؛ فالفروع لا يجب أن تحجب الأصول، والشكل لا يجب أن يلهينا عن الجوهر، والاختلاف لا ينبغي له أن يتحول إلى خلاف، وقد تمخضت هذه الحوارات الدائرة في بعض ما ظهر من كتابات حول المطالبة بعدم إغلاق باب الاجتهاد، وتجديد الفكر الديني، وما أسماه البعض إعادة ترتيب العقل الإسلامي من جديد، وإزالة الفجوة المصطنعة بين الدين والعلم، وإعطاء الدعوة الإسلامية دفعة جديدة لمواجهة الغزو الفكري على الصعيدين المحلي والعالمي.. ومن أجل إثراء هذا الحوار الصحي؛ نحمل أسئلتنا اليوم إلى شاهدنا على العصر في هذا اللقاء، وهو من أرسخ الدعاة علمًا وأعلاهم كعبًا، له تجربته العريضة والعميقة في الدعوة الإسلامية، سواء على مستوى الوظيفة الرسمية كوكيل لوزارة الأوقاف، أو على المستوى العام[1] ..

☜ الداعية الإسلامي الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي فرصة طيبة أن نلتقي بفضيلتكم، ونحن نعلم أنكم دائمًا على سفر بين الملتقيات الإسلامية المختلفة في العالم الإسلامي ومشاغل الدعوة الإسلامية، ونادرًا ما نجدك هنا في القاهرة.

---

(١) تم إذاعة هذا الحوار في أغسطس ١٩٨٣م.

- أنا سعيد بهذا اللقاء وآمل أن يكون هذا الحوار همزة وصل بيننا، وبين الجميع؛ لكي نتبادل كثيرًا من الأفكار، والمبادئ والقضايا التي تحتاج إلى شرح وتمحيص.

نظرة للحياة

في الواقع، نحن ننزل كضيوف غير متطفلين، وإنما متطلعين للتنور بفكركم الإسلامي الأصيل، وفي مثل هذه الحوارات يسجل الكثير من الشخصيات شهادة على عصرنا، بمعنى تقديم رؤيتهم الفكرية، وما يرصدونه من متغيرات وظواهر تصنع ثقافة العصر، وتتحكم في سلوك أبنائه، فلا ندري من أين سوف تبدأ شهادة فضيلة الداعية الإسلامي الكبير محمد الغزالي.

- ربما يتوقع الناس من متحدث في الدين أن يعلن تشاؤمه، أو ضيقه بالأوضاع العامة، أو ينعى على الناس بعدهم عن الله، وانطلاقهم وراء مآربهم الضيقة.. إن هذا قد يكون إحساسًا عامًّا عند الكثيرين؛ لكني أنظر إلى الحياة من نواحيها الباسمة، وأبحث عن الجوانب المضيئة فيها؛ كي أتشبث بها وأوسع آفاقها، ولا يعني هذا أنني أتجاهل كثيرًا من الانحرافات أو العلل التي انتشرت في مشارق الأرض ومغاربها، مع عصر اتفق العقلاء على أنه يتسم بالطابع المادي، وربما لأنني أشتغل

بالدعوة الإسلامية أرى في الناس أفضل جوانبهم، فعندما ألقى الناسَ في المسجد لا أرى في الناس إلا وجوهًا تخشع وترنو ببصرها إلى رب العالمين، وترينا من شخصياتها ما هو الأتقى والأنقى؛ لعلي في وظيفتي هذه غير وظيفة وكيل النيابة الذي يعيش أغلب عمره فيرى الصحائف السود لكثير من الناس.. أنا لا أحب أن تكون المرائي القريبة مني هي التي تحدد حكمي على الأمور؛ لكني أقول: إن النظرة الشاملة المستوعبة هي التي أعتمد عليها في حكمي على عصرنا هذا، وفي تناولي للقضايا الكثيرة التي يهتم الناس بها، ولذا أستطيع أن أقول: إن أبواب الأمل لا تزال مفتوحة أمام ناشدي الخير، وخادمي القيم، وأعتقد على عكس الكثيرين أن أمام المسلمين ميدانًا رحبًا يخدمون فيه دينهم، ويبلغون رسالتهم، ويسدون ثغرات كثيرة، انفتحت على الناس، مع انفتاح عالم رحب من التقدم الصناعي والحضاري المادي.. وأنا مؤمن بأن النهضة الصحيحة لا بد أن يكون وراءها علم غزير، وكل نهضة تقوم دون منهج علمي أو تنطلق دون فلسفة خصبة؛ فهي ثورة لا بد أن تنتهي، وإذا أخذت من دنيا الناس عشر سنين أو أكثر أو أقل، فإن هذا يكون عمرها المحدود؛ فقد استطاع التتار أن يغيروا على العالم؛ لكنهم سرعان ما ذابوا، وطغت عليهم

أمواج المد الإسلامي، كما أمكن لحاكم عظيم مثل (محمد علي باشا) أن يحدث نهضة في مصر، لكنها انتهت بموته؛ لأن الرجل كان أميًّا، وإن كان عبقريًّا، إلا أنه لم تكن وراء نهضته إمدادات علمية دافقة من جماهير استيقظت من رقادها، ومشت في ثبات إلى هدفها.

أسس النهضة

☜ **تعني أنها كانت نهضة فرد، وليست نهضة أمة؟**

- يشبه الأمر أن يكون كذلك، وكل أمة يكون المحرك فيها مواهب فرد مع خمود الجماهير لا تنتظر منها إلا أنها آلات في يد ستتوقف ما توقفت هذه اليد.

☜ **ولذلك دائمًا يقولون: إن النهضة التي حدثت مصر في عهد محمد علي، والتي كانت معاصرة لبداية نهضة اليابان انقطعت، بينما استمرت نهضة اليابان مثلما نرى.. أليس كذلك؟**

- بلى.. لأن النهضة اليابانية كانت أعمق وأخصب.. هؤلاء اليابانيون استطاعوا أن ينتقوا من الحضارة الغربية ما يوائم أو ما لا يناقض على الأقل تقاليدهم التاريخية والاجتماعية والدينية؛ فبنوا على مهاد قائم، ولم يصطدموا بما تتبدد فيه

قواهم من مقاومات وأخذ وردٍّ، ووجدوا أن المجتمع الياباني له نواحٍ روحية ونفسية لا معنى لمصادمتها، فسلموا بها وترجموا العلم، والعلم لا وطن له، ويمكن أن يبرع في علوم الرياضة من حساب وجبر وهندسة أي إنسان، ويمكن لأي إنسان أن يطور التقدم الصناعي، ما دام صاحب عقل مفتوح؛ فهؤلاء استطاعوا فعلًا أن يستقدموا أشهى ما في الحضارة الغربية من تفوق مادي وحضاري، وجعلوا عبقرية الفكر الياباني تخدمه، ولم يقع تفاوت بين الأجيال يتصارع سلفها مع خلفها أو خلفها مع سلفها؛ بل كان الامتداد طبيعيًّا؛ فمشت الأمة دون رجَّات عنيفة تنال منها.

هذا من أبرز ما يميز اليابان .. لكن هل تواصل الأجيال مع بعضها، واحترام الصغير للكبير، احترامًا يشار له بالبنان، واحترام الابن لأخيه الأكبر وأبيه وأمه - مثلًا - يساهم في هذا؟

- أنا ممن يرون أن الفطرة هي الدين، الفطرة السليمة هي الدين الحق.. ربما كان الدين سطورًا تكتب، أو آيات تسمع؛ لأننا تلقينا الدين هكذا، وربما كان الدين تقاليد سليمة وشمائل نظيفة في أجيال تتلقى هذا عملًا، وهي بعملها تترجم

قوله ﷺ: «ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»[١].. فما ذكرته من أن الأجيال اليابانية تتواصل الاحترام، وصغيرها يوقر كبيرها، وجاهلها يمشي وراء عالمها ويستفيد منه، فبهذا أقامت الأمة نفسها، أما أن يحقد الكبير على الصغير، أو يقسو عليه، أو يزدري الصغير الكبير وينابذه العداء؛ فمعنى هذا أن الأمة تبددت قواها في الهدم.

بالتأكيد؛ لأن اللبنة الأساسية الأولى في أيِّ مجتمع، هي الأسرة..

- الأسرة هي الخلية الأولى أو المهاد الأول، أو الخطوة الأولى نحو تربية صحيحة، على كل حال هذا يذهب بنا بعيدًا.. لذا نعود إلى ما قلناه من أنه لا بد من علم، ولا بد من سعة معرفة، ولا بد من انفتاح آفاق النفس؛ لكي توجد نهضة حقيقية، والنهضات الحقيقية لا يصنعها حاكم عسكري بأوامر يصدرها؛ لأن الأمم إذا لم تكن جماهير الشعب فيها متحركة بقوة كامنة فيها، ومنطلقة، الشوق يقودها وينطلق بها،

(١) رواه الحاكم في المستدرك من حديث عبادة بن الصامت، وقال الألباني: حسن.

فإنها ستقف في الطريق حتمًا، وأنا أرى أنه توجد نهضة علمية إسلامية الآن.. كانت هناك يقظات إسلامية فيها شيء من الوهم، كالمهدية في السودان، حيث كانت حركة إصلاحية؛ لكن لم تكن هناك حركة علمية مستبحرة، بينما كانت هناك حركات نهضات في أماكن أخرى لا نريد أن نسميها، لكن لم يكن معها الصحو العقلي الذي أراه الآن في العالم الإسلامي؛ لذلك أنا متفائل كما قلت؛ لأن الحركات الجوفاء أو الحركات الطائشة لا جدوى منها؛ لكن الحركات التي يخطط لها العلم الواسع والنظر العميق، وتستمد انطلاقها من قوى ذاتية كما تستمد الشجرة نماءها من امتداد جذورها في التربة وغيابها في ظلمة الأرض، كل هذا يعطيها قوة أكثر الآن. أنا من خلال تجوالي من شاطئ الأطلسي إلى شواطئ الهند استطعت أن أضع يدي على مفاتيح يقظة إسلامية؛ حيث وجدت شبابًا يقرءون، ووجدت ناسًا يبحثون، ووجدت تطلعًا إلى الحقيقة، ووجدت رغبة في البحث والمعرفة، فأدركت أن الصحوة الإسلامية تسير إلى خير، وإنْ عرقَلَتْها بعض الأخطاء، أو اعترضَتْها بعض الأنواء؛ لكن هي إلى خير؛ لأنها - كما قلت -

تعشق العلم، وتطلبه بإلحاح وتجتهد في طلبه، ولا ترى حرجًا أن تتلمذ على الآخرين؛ لكي تستفيد مما عندهم، وشرط العلم - دائمًا - التواضع لمن نتعلم منه، فإن الذي يستكبر بما عنده لن يزداد إلا جهلًا.

فالصحوة الإسلامية التي أشعر بأنها موجودة الآن حقيقية؛ لأنها - كما قلت - تعتمد على علم؛ لكن ما هو العلم الذي يمكن أن نرحب به، ويمكن أن نعتبره دعامة؛ لكي ينهض البناء فوقها، ونحن مطمئنون إلى أنه لن ينهار مثل بعض العمارات التي تبنى بطريقة طائشة؟

العلم

وهذه ظاهرة أخرى من الظواهر التي نحاول رصدها؟

- إن العلم كلمة تدل الآن على مفاهيم كثيرة، فبعض الناس لا يرون العلم إلا النشاط المادي أو النشاط العقلي للإنسان في فهم المادة، ولعل هذه الكلمة هي الدارجة في أوربا الآن، العلم ما كان بحثًا يتصل بالمادة.. والعلم في نظري أوسع من هذا؛ لأن الحقائق العقلية تتناول الماديات وتتناول ما وراءها، فأنا أستطيع أن أقول: النقيضان لا يرتفعان ولا يجتمعان. والواحد نصف الاثنين، هذه حقيقة عقلية، لم أستمدها من تجربة في المعمل أو من

بحث في تربة الأرض، إنما استمددتها من البديهيات الرياضية التي يعتمد عليها العقل في كثير من بديهياته، ولهذا فإن العلم عندي يشمل الوحي الصحيح الصادق، كما يشمل كل ما يعتمد على التجربة والملاحظة والاستقراء في دنيا البحث العلمي الحاضر، وكما يتصل بالأدبيات التي تنعش الوجدان البشري، وتجعل الإنسان يلقى هذه الدنيا وهو مفتوح الأقطار يتجاوب معها، ويجعلها تغنى به ولا تفتقر، وتقوى به ولا تضعف. فهذا كله علم.

مصر بلد التيارات

☜ هذه نظرة الإمام الغزالي للعلم؛ لكن ما هي نظرة المجتمع المعاصر؟

- المجتمع المعاصر؛ تقصد في مصر أم في العالم العربي أم في العالم الإسلامي عمومًا، أم في القارات الخمس؛ حيث تنتشر مذاهب كثيرة وفلسفات كثيرة؟ أما في مصر فأنا لا أزال أرى أن مصر هي العالم العربي، ولا أزال أرى أن أمل العرب في مصر، ولا أزال أرى أن القاهرة عاصمة العالم الإسلامي، لا أزال أرى أن بلدنا والحضارة التي رست أصولها في ترابه من سبعين

قرنًا تعطي العقل المصري شيئًا من التفكير الهادئ وأصالة الحكم، والقدرة على استجلاء الحقائق والأناة في خدمتها، وأشياء أخرى كثيرة نحتاج إليها؛ إلا أن العلم عندنا في مصر، لا يزال غير مستقر بين تيارات كثيرة تتجاذبه، فمصر بلد التيارات.

مصر بلد التيارات.. كيف؟

- لأنها مركز ممرات الفكر العالمي، وممرات الحضارات القديمة، وممرات الرسالات السماوية، وحتى ممرات التجارة العالمية - فهي في الشرق الأوسط؛ وهي تحت أوربا، وبين إفريقيا وأسيا - فنحن في مكان يمكن أن نتلقى منه كل شارات الفكر الإنساني، وفي الوقت نفسه يمكن أن نصدِّر من عندنا ما نريد إلى العالم كله، فمركزنا يجعلنا - من ناحية الأخذ والعطاء - في مركز مرموق، وإذا كان في مصر من يفهمون الشيوعية أو الوجودية أو الرأسمالية أو مذاهب الأخلاق المختلفة، من نفعية ولذِّيَّة وكمالية، أو يفهمون ما بلغه التقدم الأمريكي من التقدم في الصناعة، أو ما بلغته روسيا أحيانًا في عالم التطبيق المادي في نظرياتها الإنسانية، أو ما بلغته حضارة غرب أوربا،

وهي حضارة لها خصائصها التي تتميز بها، كل هذه الأنواع أو الأنماط المختلفة من السلوك البشري أو العقل البشري، نحن - المصريين - نستوعبها أو نفهمها، أو لها في نفوسنا مكان، يمكن أن نأوي إليه حين ندرسه ونتدبره، ويمكن أن ننتقي منه متى نحب.

لعل هذا يفسر تعايش كل هذه التيارات في هذا المجتمع تحت سماء واحدة، ووجودها رغم التناقضات الكبيرة بينها.

- الشخصية المصرية حتى من الناحية الإسلامية، تحب أهل البيت، لكن لا تتشيَّع، وتعتنق التوحيد اعتناقًا نظيفًا نزيهًا، لكنها لا تقاتل من أجل التطرف أو التزمت في بعض تفسيراته، هي حضارة فيها شخصية - أقصد الشخصية المصرية وحضارتها - فيها التوسط غالبًا والاعتدال، فهل هذا يؤخذ عليها؟ بعض الناس يأخذ على المصريين أنهم فعلًا تتوازن الأمور أمامهم فينظرون نظرة فيها شيء من السكون؛ لأن الأمور متوازنة أمامهم، أما الآخرون فلا تتوازن الأمور أمامهم؛ بل تترجح في نحو معين، فينطلقون في هذا النحو متحمسين أو معارضين؛ لكن المصريين إلى جانب هذا يتميزون بأنهم شعب مؤمن..

عندما كان غيرهم يبحث عن لقمة الخبز في فجر التاريخ، كانوا هم يبحثون في خلود الروح، ويتحدثون عن الآخرة، ويعدون الأجوبة للقضاة الذين سيسألونهم، وهم أربعون قاضيًا في فلسفة التاريخ الفرعوني القديم؛ فهذه سمة من سمات الشخصية المصرية وهي أن الإلحاد ليس له نصيب في كيانها، وإذا حدث يومًا فهو قشرة تطير مع الريح، فنحن شعب متدين حقيقةً، ولهذا فإننا - كما قلت سابقًا - بتديننا وبأصالتنا الحضارية وبرغبتنا في أن نترجم عن أنفسنا وفق منطقنا الذي ألفناه على امتداد التاريخ - نقول الكلمة الأخيرة دائمًا في تاريخ المنطقة التي تحيط بنا؛ فعندما سقطت بغداد بين أيدي التتار، وانطوت الخلافة العباسية انطواء مخزيًا، لم تمض سنتان حتى كان المصريون يهزمون التتار في (عين جالوت)، بقيادة قاهر التتار (قطز).

وعندما جاء الصليبيون، واستطاعوا أن يجرفوا أمامهم الأناضول وعواصم الشام، وأن يأخذوا بيت المقدس، فإن الجيش المصري قال الكلمة الأخيرة، واسترد (صلاح الدين) في معركة حطين بيت المقدس، ويمكن أن يقول المصريون الكلمة الأخيرة في مقررات كثيرة عسكرية وعلمية وحضارية وصناعية في هذه المنطقة؛ لكن على شرط

أن يتجاوبوا مع أنفسهم، وأن ينطلقوا من عقائدهم، وألا يرغموا على فكر هم له كارهون، وأن يكون هذا الجمهور المسلم الأمين على إيمانه وفلسفته في الحياة مُعبِّرًا بحرية عما يريد أن يقوله، وأن يفعله.. وعندما تكون أمتنا بهذه المثابة فإنها ستنهض بدورها التاريخي دون تردد، وتصل إليه مهما كانت العوائق، ولذلك أنا أعتقد أنه بقدر ما تحمل التربة المصرية من أسباب النجاح بقدر ما سيوجه إليها من أعدائها من عناصر المقاومة والرغبة في قتل كل برعمٍ يبرز وكل زهرة تتفتح، فعلى قدر دورنا في خدمة الحق وحضارته والإنسانية ومستقبلها؛ فإن أعداء الحق والحضارة والإنسانية سيكيدون لنا ويتعاونون ضدنا، ولذلك أرى أننا لا بد أن نَقْدِر الأصدقاء والأعداء ببصر، ونعرف ما ناطه القدر بأعناقنا، فنؤدي واجبنا بأمانة، ولكن ليس معنى هذا الحكم أنني أغطي عيوبًا كثيرة ألحظها هنا وهناك؛ لكن معنى حكمي بسلامتها أن هذه العيوب سطحية.

الصورة والحقيقة

☜ قد تكون عيوبًا سطحية؛ ولكن ليتنا نسجلها في هذا الحوار الشائق؛ لأن من مهامنا الأساسية أن نقاوم هذه العيوب، بأن نظهرها أولًا، ثم نعالجها ثانيًا: فما أهم هذه العيوب التي لاحظتها في هذا العصر؟!

- لاحظت في الدائرة التي أعيش فيها، أن عددًا من المتدينين شغلته الصورة عن الحقيقة، كما ألمحتم أنتم إلى هذا في صدر الحديث، فأنا أعلم أن إطلاق اللحية من سنن الفطرة في الإسلام، أو من سنن التكمُّل والتجمل، وكثير من الناس حتى في أوربا يطلق لحيته، لكن أن يكون هذا أساس الدين وركن الإيمان وأن أعلن حربًا مدمرة على أناس رأيتهم يحلقون لحاهم، فهذا شيء مستغرب.. وقد رأيت بعض الناس ينفِّس عن غليانه الديني بأن يحمل حملات منكرة على الذين يحلقون لحاهم، ويحاربهم وكأنما يحارب الكفر بالله، هذا بالتأكيد نوع من الغلو، فكل شيء يأخذ وزنه الطبيعي، فإذا كان الانحراف موغلًا في البعد، كنت شديدًا في تناوله، أما إذا كان قريبًا؛ فإني أتناوله بشيء من الهدوء وعدم التعصب والتشنج، أي تأخذ الأمور في علاجها هدوءًا أكثر؛ لذلك قلت عن هؤلاء: إن بعضهم ربى لحيته، ولم يربِّ نفسه؛ لأن تربية النفس ركن في الدين ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]؛ فأما أن أحقد على ناس قد انحرفوا عن بعض التعاليم، فإن حقدي هذا دليل على أني لم أربِّ نفسي.. لذا يجب أن أكون عطوفًا وأن أكون رقيقًا، ومن زاوية الحب أداوي الأخطاء.

الملاحظة الثانية أن بعض الناس يظن العلم في الدين هو دراسة الكتاب والسنة والفقه...

الأمم الطفلة هي التي تقلد الشكل

أود من فضيلتك قبل أن ننتقل لهذه الملاحظة أن نتوقف عند قضية الاهتمام بالشكل؛ وقد أشرت إلى اللحية، فماذا عن الزِّي أيضًا؟

- ليس للإسلام زي معين، فالرجل يستطيع أن يلبس ما يشاء كما قال عليه الصلاة والسلام: «كل ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة»[1]. أي: ابتعد عن الإسراف، وعن الخيلاء والكبر، والبس ما شئت. وتَصوُّرُ أن الإسلام أعطى مواصفات معينة للزي الذي يلبسه الرجل غير صحيح، وكون العرب ارتدوا ملابس بيضاء واسعة؛ فلأن الجلباب الفضفاض طبيعة البيئة التي يعيش فيها العرب؛ بيئة بدوية لا بد فيها من ستر القفا؛ لأن الحر شديد هناك، وقد تسبب الحرارة صدمات للناس، فهم يفرون منها بهذه الأغطية، وبالجلباب الأبيض الذي يعكس الأشعة.

---

(١) رواه البخاري تعليقًا، ووصله ابن أبي شيبة موقوفًا على ابن عباس، والمخيلة هي الخيلاء.

لكن تصور أن الإسلام يوجب عليَّ أن ألبس جلبابًا أبيض سواء كنت في أوربا أو أمريكا أو حتى وادي النيل غير صحيح، وتصور أن الإسلام جاء بتغطية الرأس بأية ملابس أو كما يحصل عند العرب عندما يلبسون العقال. فهذه ملابس عربية، وهناك فروق يجب أن تعرف بين تقاليد عربية وتعاليم إسلامية. كذلك ملابس المرأة ليس هناك إطلاقًا زي معين للمرأة، كل ما يطلبه الإسلام هو ألا تتبرج المرأة وألا تعرض مفاتنها على الآخرين وألا تتسبب في بعثرة النظرات السيئة حولها؛ فإن ذلك يجعلها فتنة. إذن لو سترت جسدها فإنها تكون أرضت ربها، واحترمت نفسها، وأنا رأيت الراهبات المسيحيات والفلاحات المصريات يلبسن ملابس سابغة، ولا حرج عندنا أن تكون ملابس النساء من هذا النوع، أما تصور أن الإسلام يمثل زيًا معينًا أو تقليدًا خاصًا بجنس من الأجناس، فهذا غير صحيح، فالنبي عليه الصلاة والسلام ارتدى جبة رومية ضيقة الأكمام؛ لأن هكذا الملابس الرومية - فالجو البارد تناسبه الملابس الضيقة - ولما أراد الوضوء لم يستطع أن يخلع يده من كمه؛ فأخذ كمه من أسفل وتوضأ.

أخرج يده من الجَيْب؟!

- أو من أي مكان من ثوبه، المهم أنه لم ير حرجًا في أن يلبس جبةً رومية؛ فالذين يرون أن أية ملابس الآن غير الجلباب ملابس غير إسلامية، هؤلاء لا يفهمون الإسلام، ولا يعرفونه؛ لكن أنا شخصيًّا وددت لو توحد الزي.

توحيد الزي خاصة للفتيات في مراحل التعليم المختلفة..

- بالنسبة لطلاب الجامعات على الأقل.. فأنا أريد أن أداوي النفوس، وأن أقتل عقدة النقص، وألا أشعر فتاة بأنها رخيصة في المجتمع لأن ملابسها رخيصة، لا أريد هذا، لو توحد الزي بين الفتيات جميعًا، ثم بعد ذلك تفاوت الناس في لغة التخاطب بالهدوء والعنف، بالرقة والخشونة، لو تفاوت الناس في الكلام بسعة العلم أو بضيقه، لو تفاوت الناس بعظمة الأدب وروعته أو بقلة الأدب، هذا هو التفاوت الحقيقي بين البشر، أما أن أفتح منافسة غير شريفة أمام العيون الجائعة للملابس، وللحلي وللزينة وللمظاهر المختلفة - فأنا بذلك أظلم العلم وأظلم الخلق وأظلم الفتيات الفقيرات، ولا تزال الفقيرات هن أكثر المجتمعات في دنيا الناس، فأنا لا أريد أن

تجيء فرقة من الفتيات الغنيات بملابس تلفت الأنظار؛ لكي تثير في النفوس مشاعر من الضيق أو العنت، ومعروف أن البحث وراء الزينة قد يكلف النساء الكثير من الأخلاق.

الإسلام دين بحّاث عن الحقيقة

فضيلة الشيخ الغزالي، أول ظاهرة تُركز عليها هنا، هي الاهتمام بالشكل دون الجوهر، ونعتقد أن هذه واحدة، والنقطة التي تتصل بها اتصالًا وثيقًا هي التعبير عن الاهتمام بهذا الشكل بتعصب، وبانفعال وبتهور.

أولًا: لفت نبي الإسلام - عليه الصلاة والسلام - النظرَ بقوة وحسم، فقال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[١]. فالإسلام دين بحَّاث عن الحقيقة «التقوى ههنا»، وأشار بيده إلى صدره[٢]، هذا لا يعني أن الإنسان يتصرف كيف يشاء، ثم يقول: أنا طيب القلب. لا، فالإنسان يحافظ بداهةً على حقيقته، وعمَّا يصون هذه الحقيقة في عالم الأحياء. إن الشكل أو القشرة قد يكونان صونًا للحقيقة، فالبرتقالة إذا قُشِّرت رمينا بالقشر؛ لأننا لا نحتاج إليه،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد.

والحقيقة هي الداخل «البرتقالة». لكن إذا تركت البرتقالة مقشورة مدة طويلة فسدت؛ فقد يكون القشر سببًا في الحفاظ على الحقيقة.

فأنا لا بأس عندي من أن قشرة البطيخة أحافظ عليها، وقشرة البرتقالة أحافظ عليها، وقشرة أية فاكهة أحافظ عليها؛ لكن ليس معنى هذا أن الأوضاع تنقلب، وأن يضيع اللُّب من أجل القشر؛ فالذين يحافظون على القشور وحدها وينسون ما وراءها مذهولون عن حقائق الحياة وعن حقائق الدين، وأنا أرى أن هذا تفكير طفولي؛ لأن الطفلة هي التي تنظر إلى الشكل وحده؛ لكن لماذا قلت: إن هذا تفكير طفولي؟ وذلك لأن الولد عندما ينظر إلى أبيه وهو يصلي، فهو ينظر إلى الشكل، ينظر إلى رجل يقف ويركع ويسجد؛ لأن هذا هو المنظر الذي يراه، لكن لا يرى الخشوع في القلب.. إنه لا يرى التأمل في معاني القراءات المتلوَّة أو كلمات التسبيح التي تتردد؛ لأن الطفل لا يعرف هذا ولا يراه، فهو عندما يقلد أباه في الصلاة يقلده في الركوع والسجود والقيام والانحناء وهكذا، أما ما يغيب عن عقله وعن رؤيته وعن بصيرته؛ فهو لا يقلده فيه؛ لأنه دون مستواه، لا يعرفه.

إذن الأمم الطفلة هي التي تقلد في الشكل، ولا تقلد في الحقيقة، كالطفل بالضبط، الصلاة شكلها عنده ركوع وسجود؛ لكن حقيقتها

الاتصال بخالق الوجود، ورب الأرض والسماء رب العالمين، نستمد منه الرشد ونستمد منه العون، ونعلن عبوديتنا له، ونعاهده على أن نعيش وفق مراده وعلى الطريق المستقيم الذي رسمه لنا، هذه هي حقيقة الصلاة، لذلك فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتملأ المجتمع بالنظام؛ لأنها ركعات وسجدات محسوبة؛ ويذهب الناس مرة واحدة للمسجد في ساعة واحدة وهكذا؛ فلو فقدت الصلاة هذه المعاني الحقيقية لها، وأصبحت مجرد انحناء ومجرد شكل، إذن لضاعت الصلاة، وفقدت معناها.

كلمة إلى الشباب

- ولذلك أتوجه لشبابنا المسلم وأقول له: اعرف ربك معرفةً حقيقيةً، واجعل قلبك يرنو إليه بخشوع، ويستمد منه بتلطف وأدب، وعامل الناس على أساس أنك عبد تنظر في أعمالهم كما تنظر في أعمال نفسك.. وفي هذا المقام تعجبني كلمة مروية عن عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: «لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في أعمالكم على أنكم عبيد؛ فإنما الناس رجلان؛ مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية».

وإنني أحب من شبابنا الذي عرف قليلًا من الحق أن يعرف كثيرًا من الحق، والذي بدأ على أول الطريق - طريق الهدى - أن يوغل فيه، وألا يحيد عنه، والذي نظر إلى الناس فرآهم شاردين أن يتلطف في اقتيادهم وأن يعاملهم بالحسنى، وكما أمرنا ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يعلم أن الله لا يخدع، وأن التعويل على الشكل قد يخدع الناس، ولكنه لا يخدع مَن يتعامل مع القلوب.

رأي في اللحية والجلباب

☜ ماذا عن اللحية والجلباب؟

- هذه كما قلت مظاهر، وأنا لا أقول: إن اللحية حرام، أو إن اللحية تترك؛ لكن أقول: مَن استكمل دينه وأدى هذه السنة فهو مشكور، ولو تركها نرجو الله له التوفيق وننتظر له الخير، ونؤمِّل فيه أن يكون أحسن مما كان، فالمعاصي كالأمراض؛ هناك أمراض خبيثة خطيرة، وهناك صداع يمر بالإنسان؛ فهل يتساوى هذا وذاك؟!

فعندما أجد إنسانًا عنده صداع من الممكن أن أصف له دواء على عجل، مثل الأسبرين أو شيء من هذا، لكن إذا كان مصابًا بالحمى فلا بد أن يذهب إلى الطبيب.

كذلك أخطاء الناس، منها أخطاء تافهة لا تحتاج إلا إلى تعليق عابر ولفت نظر سريع دون غضب كما قلت، ودون تشنج، أما الذين «يجعلون من الحبَّة قبَّة»، ويريدون إثارة معارك من أجل التوافه، فهؤلاء مرضى على الحقيقة، وقديمًا جاء رجل إلى الحسن البصري، وسأله عن حكم الصلاة في قميص به دم البراغيث، فقال له: من أي البلاد أنت؟ قال: من العراق، فقال له: من العراق! استبحتم دم الحسين وتسألون عن دم البراغيث؟! فالذين يرصدون هذه الأمور التوافه، ويعلقون عليها لا تنتظر منهم أن يهتموا بالعظائم أو يؤدوا عملًا كبيرًا، فالعمل الكبير يبحث عنه الكبار، أما الذين يتعلقون بالصغائر؛ فلا تنتظر منهم إلا أن يكونوا صغارًا فيما يتصرفون وما يصنعون له.

التعصب للفرقة

نود أن ننتقل من الملاحظة الأولى لفضيلة الشيخ محمد الغزالي الداعية الإسلامي الكبير وهي «التركيز على الشكل وعلى الزي في مجتمعنا المعاصر وفي عصرنا» إلى الملحوظة الثانية والظاهرة الثانية..

- لقد تفرق المسلمون قديمًا على عدة مذاهب. والمذاهب الفقهية المعروفة هي: مذهب أبي حنيفة، ومالك، والشافعي،

وابن حنبل، فهؤلاء أئمة مجتهدون لهم مكانتهم، ولهم وضعهم العالي؛ لأنهم قمم في الفكر الإسلامي وأرى أن من اتبع إمامًا من هؤلاء الأئمة؛ فإنه من غير شك يكون على خير، وعلى هدى؛ لكني استغربت عندما وجدت أن التعصب المذهبي - وهو غالبًا في فروع الفقه - يستولي على كثير من الناس حتى بلغ قديمًا من توغله في المجتمع الإسلامي أن كان الوقت الواحد تصلي فيه عدة جماعات، فكان الأحناف يقيمون لصلاة الظهر جماعة لهم في الأزهر، والمالكية جماعة أخرى، والشافعية جماعة أخرى؛ بل كان هذا في الحرم الشريف - الحرم المكي - قبل أن يجيء أتباع «محمد بن عبد الوهاب»[1]؛ الذين رفضوا هذه الأوضاع وجعلوا المسلمين جماعة واحدة.

إن هذا التعصب للفرعيات أخذ الآن صورة قد يكون فيها شيء من السوء، لكنه لا بد من لفت النظر إليها، وإن كان خفيفًا؛ فبعض الناس يختلف مع البعض في الصور الشمسية، والصور الشمسية أفتى

---

(١) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي زعيم النهضة الدينية

الشيخ «بخيت المطيعي»[1] من نحو مائة سنة بأنها ظلٌّ حُبس، وأن هذا التصوير لا شيء فيه، ومضى الفكر الإسلامي في مصر على هذه الفتوى، ومعتمدًا - كما قال أستاذنا «حسن البنا» - على حديث مسلم: «إلا رقمًا في ثوب»، يعني التصوير على المسطحات لا شيء فيه، وإنما التجسيد تجسيد الصورة هو الذي يلحق بها العيب أو يجعلها موضع استنكار ديني، ثم جاء رأي آخر من وراء الحدود المصرية، يرى أن التصوير حرام، وبلغ التعصب لهذا الرأي حدَّ التماسك بالأيدي وربما الضرب؛ فقد ذهبت إلى الإسكندرية؛ لأفض بعض المشكلات التي نشأت عندما عرض رجل صورًا للمجاهدين في أفغانستان، وبعض ضحايا الهجوم السوفييتي هناك؛ فجاء مَن يقول له: التصوير حرام، ولا بد من تمزيق الصور.. فوقع التشابك والضرب.



الشيخ بخيت المطيعي

---

(١) العلامة الأصولي الفقيه «محمد بخيت المطيعي» الحنفي المشهور، كان من شيوخ الأزهر في القرن الماضي، وله كتابات قيمة ودقيقة، وقد تولى منصب الإفتاء، وتوفي سنة ١٣٥٤هـ.

وهذا بالتأكيد ليس دليلًا؛ لأنه على فرض أني أرى التصوير حرامًا، فهذا رأيي، وهو اجتهاد فقهي، والاجتهاد الفقهي لا يمكن أن يكون إلزامًا للآخرين، فمن حقي أن أتبع أي اجتهاد فقهي؛ لكن ليس من حقي أن ألزم به غيري.

وهذا هو - طبعًا - مفهوم العقيدة، والحرية في الإسلام..

- الإسلام يفرق بين الأخطاء الخلقية، والأخطاء العلمية؛ فالأخطاء العلمية في فهم النص الإسلامي مأجور صاحبها، فلو اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، أجر اجتهاده وإن أخطأ، كأن تحريه للصواب وبحثه عنه له عند الله وزن ما ضاع، وإن كان قد أخطأ في النهاية فهذا المجتهد مأجور، سواء أخطأ أم أصاب، فمن قال: إن المجتهد آثم وفاجر، ويجب أن نقاتله، فهذا كلام لا معنى له.. لقد شاهدني بعض المتدينين وأنا أغسل يدي بماء الكولونيا بعد الطعام، فكره هذا ونفر منه؛ فأدركت أنني أمام رجل مريض وإن كان جسمه سليمًا، لكنه مريض العقل. هب أنك ترفض الكولونيا؛ لكنني لا أرفضها، لك رأي خذه، وينطلق الناس بآرائهم، وقلت له: كالسيارة تضم في داخلها كراسي

بجوار السائق وخلفه، لكنها حين تنطلق فإنها تنطلق كلها مع القافلة أو السيارة في اتجاه واحد، فكذلك الأمم قد تختلف آراؤها في قضايا كثيرة، لكنها في قضاياها الكبرى التي تجمعها تنطلق في وجهة واحدة، وهذا لا يضيرها ولا ينال منها، إنما تهلك الأمم عندما يحاول التافهون، أو صغار العقل أن يفرضوا أوهامهم على الآخرين أو آراءهم على الآخرين، فإنْ أعياهم هذا بالقدرة العقلية، فهو لا يعييهم بالعصا، وهنا تذهب المجتمعات نتيجة الفتن الخطيرة.

هذا يذكرنا بما أثاره بعض هؤلاء المتزمتين عن عدم الأخذ بالحضارة الأوربية؛ لأنها كافرة، وهذا ربما أعطى انطباعًا عن الإسلام بأنه يعادي التقدم والتطور، مع أن هذا لا محل له من الصحة.. فما رأيك في هذا؟

- لا أتصور أن مسلمًا - مهما كانت جهالته - يتصور أن التقدم الصناعي أو الارتقاء الحضاري المعاصر هو نوع من الكفر، كيف يكون كفرًا؟! الحضارة الأوربية تعتمد على أصول إنسانية حسنة؛ لأنها قامت على النظر في الكون، وعلى استعمال قواه في خدمة الإنسان.. أنا عندما أدخل المصعد من الدور الأرضي إلى أدوار

عليا أتذكر قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وعندما أركب الطائرة أكون في شرق من الدنيا، ثم أكون في غربها بعد ساعات، وهذا كانت الأقدام تغبر فيه شهورًا، والأعصاب تحترق فيه عندما يلحق الإنسان الليل بالنهار. مَن قال إن هذا كفر أو فسق أو انحراف أو معصية، هذا - يقينًا - من فضل الله على البشرية، هي نعمة تستحق الشكر والتقدير؛ بل الحضارة الأوربية مشت بالعالم؛ حيث وقف المسلمون، فإن الأمة الإسلامية قادت العالَمَ بالعلم مدة طويلة، وأنا أذكر أن المسلمين لما دخلوا القسطنطينية استطاعوا بتفوقهم الصناعي والحضاري أن يجروا السفن على اليابسة، وأن يضعوا لها بَكَرًا تمشي به على الأرض، يقال: إنه لما كان العثمانيون يحاصرون (مدينة فيينا) كانوا يعللون الانتصارات العثمانية؛ بأن المدافع الإسلامية كانت أدق تصويبًا، وأكثر فتكًا، فمعنى هذا أن المسلمين لم يكونوا من المتخلفين حضاريًا أو صناعيًا في عصورهم.

أستأذن فضيلتك أن أضيف - أيضًا - أن الحضارة الإسلامية كانت سببًا في مولد عصر الإحياء أو عصر النهضة الأوربية.. أليس كذلك؟

- هكذا قال العلماء المنصفون.. قالوا إن الأندلس، وجنوب إيطاليا وشرق أوربا كانت المعابر التي انتقلت منها الحضارة من بلاد الإسلام إلى أوربا، وأذكر أني قرأت للمستشرق الأمريكي «فلبي هيِّتي»، وهو لبناني الأصل، قوله: إن الأندلس بلغ من رقيها أن طرقها كانت مزفَّتة - مسفلتة بتعبيرنا المعاصر - وتضاء على جوانبها إلى عدة أميال من الضواحي. هذا في قرطبة، وهذا في الوقت الذي كان يخرج الرجل من عتبة بابه في باريس فتغوص قدمه في الأوحال، ولم تبلغ باريس مكانة قرطبة العمرانية والحضارية إلا بعد مائتي سنة.

هذا يذكرنا - فضيلة الشيخ الغزالي - أن نظرة أوربا للعلم في هذا العصر في القرون الوسطى كانت نظرة ازدراء، فكان العلم يُحارب على أنه دسيسة إسلامية أو باعتبار أنه سلاح إسلامي.

- هذا صحيح، فقد كان العلم يحارب بضراوة، وقصة الحرب التي وقعت بين العلم والدين في أوربا معروفة، والكلام فيها يطول وضحاياها عشرات الألوف من العلماء. كذلك الأمة الإسلامية في ثلاثة القرون الأخيرة على الأخص بدأت تنحدر،

وهذه القرون الثلاثة الأخيرة تشبه حلقات الشيخ الذي تقدمت به السن، وهذا يعني أنه مريض؛ فبدأت تظهر أمراض كثيرة وتخلفات شاسعة، وجمد الفكر الإسلامي، ووقف الاجتهاد الفكري والعقلي في كل شيء؛ حتى في الشؤون العادية للناس، فكان لا بد مع هذا الجمود الذي سيطر على أمتنا أن يقع لها ما وقع، وأن يصيبها ما أصابها؛ فإذا كان الآن شباب يبكي بأنه متعلق بأيام الانحلال في تاريخنا أو أن ذكرياته من الحضارة الإسلامية أيام المرض والعلة؛ فهذا شخص يجب أن يداوى؛ لأنه لا يعرف تاريخ أمته ولا أصول حضارته، ولا حقائق رسالته، ولا يدرك من دين الله ولا من دنيا الناس شيئًا. إنه شخص معلول كما قلت، يجب أن يداوى، والذين يظنون هذا التقدم الحضاري هو نوع من الكفران أو العصيان؛ هؤلاء لا يخرجون على الإسلام، ولا يُؤمَنون على أحكام الإسلام، إنما إذا كانوا يقصدون بمحاربتهم بعض أنواع المروق أو التحلل التي يحاربها كثير من العقلاء حتى في أوربا نفسها فله نظيره.



المؤرخ الإنجليزي توينبي صاحب كتاب
«مختصر دراسة التاريخ»

قرأت للمؤرخ الإنكليزي «توينبي» نصيحة لقومه، وهو رجل متدين مخلص لأوربا يقول لقومه: «**إنني درست اثنتين وعشرين مدنية، ودرست أسباب تفسخ هذه المدنيات، وكيف انهارت، ويؤسفني أن عناصر كثيرة أو جراثيم كثيرة في التفسخ القديم بدأت تظهر في الحضارة الغربية، وأن هذه الحضارة إذا لم تقِ نفسها، وتحصن أبناءها ضد ما يتسلل الآن فيها من مجون، ومن رغبة في اللذة، ومن تنكُّر للقيم، ومن نعيٍ على الإيمان، ومن ابتعاد عن الأخلاق؛ فإنها يدركها ما أدرك الحضارات الأولى**».

والواقع أن الحضارة الحديثة يؤخذ عليها فعلًا أن رذائلها بدأت تظهر، وبدا للعالم أنها أنانية، حتى ما تتميز به من فضائل إنسانية يكاد يطبق في نطاق محدد في حقوق الإنسان يضن بها على شعوب كثيرة، وفي بعض البلاد يقال: حقوق الإنسان والمواطن، وكأنما يقصدون

بالإنسان هنا المواطن الأوربي، والأمريكي فقط، أما المـواطن العـربي أو المواطن الهندي أو المواطن الزنجي فهذا لا حقوق له، ومن الممكن جدًّا أن يستباح في التفرقة العنـصرية، وفي حقوقـه الأدبيـة والماديـة، وتجتمع وتنفض هيئات دولية كثيرة ولا تصنع له شيئًا؛ لكـن هـذا - بالتأكيد - يؤخذ على هذه الحضارة، وربما كان من أسباب زوالها.

مسلمون بلا إسلام؟

أستأذن فضيلتك، أن ألخص ما سبق ذكـره قبـل استكمال هـذا الحديث الشائق الحافل، فقد ركزت في هذا الحديث على نقطتين مهمتين رصدتهما في واقعنا الإسلامي المعـاصر، وهمـا: انـصراف التركيـز إلى الـشكل دون الجـوهر، وإلى الاهـتمام بالتفـصيلات دون الأصول.

وتحدثت عن الحضارة وحوار الحضارات، وأن الحضارة الإسلامية الرائدة التي أخذت منها أوربا أسباب نهضتها، ومـا أسـمته عـصر التنوير وعصر الإحياء، أخذتـه مـن الحـضارة الإسـلامية لدرجـة أن العلم هناك كان يُحارب على اعتبار أنـه دسيـسة أو سـلاح إسـلامي. ولكن انقلب الحال الآن وأصـبحت أوربـا هـي التـي تأخـذ المبـادرة العلمية، وتسبق في مجال العلم، بينما البعض عندنا ينظرون إلى العلـم

نظرة تحتاج إلى وقفة، ينظرون إليه على أنه وارد أجنبي. من هذا المنطلق، هل النقطة التي انطلقت منها الحضارة الأوربية إسلامية فعلًا؟

- أنا فيما رأيته من أصول إنسانية للحضارة الأوربية الحديثة أستطيع أن أقول: إن هذه الحضارة - الحضارة الأوربية - هي التي لبَّت فعلًا مطالب القرآن الكريم في النظر في الكون واستغلاله لمصلحة البشرية.

فعندما أقرأ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وعندما أقرأ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣]، وعندما أقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]؛ عندما أرى هذا في كتابي، ثم أنظر أجد أن العلم في أوربا بدأ من الأبجديات الإسلامية؛ فنظر في كتاب الكون المفتوح، وتأمل أكثر مني أنا في سطور هذا الكون، من نبات أو حيوان أو معادن سائلة أو جامدة برًّا وبحرًا وجوًّا، وأخذ يحلل التربة ويدقق في العناصر، ويستعرض ويستقرئ ويستبطن ويبذل كل جهده في التأمل، أليس

هذا استجابة لما عندي من مطالب ألح فيها القرآن عليَّ - أنا المسلم - وقال لي: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل:١٠]، فأجد أن الفقر الشرقي يمشي على أرض مليئة بالذهب، مَن الذي استخرج هذه المعادن؟! مَن الذي قدمها للإنسانية؛ كي تنتفع بها؟! مَن الذي أرسل السفن مواخر في البحر تحمل مئات الألوف من الأطنان، وتتهادى على الموج كأنها جزر عائمة؟! فأنا الذي أهملت، وغيري هو الذي تحرك، ربما يدهش البعض عندما يسمعني، وأنا أقول: إن الحضارة الغربية طبقت تعاليم الإسلام، ولكن ألا تذهب دهشته عندما يرى أن القرآن ضم آيات تحدثت عن الفكر، وقد ألف الأستاذ العقاد كتابًا أسماه: التفكير فريضة إسلامية، جمع فيه بين مائتي آية أو ثلاثمائة آية تحدثت عن العقل البشري، وعن وظائفه، وعن أساليبه في الوصول إلى اليقين، وعن الحقائق التي ينبغي أن يهتدي إليها، وكيف حرص الإسلام على أنه يتبع العلم لا الوهم، والحق لا الظن، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [يونس: ٣٦]، فكون الحضارة تجيء وتبحث عن اليقين، وتبني على هذا اليقين تطورها الصناعي وتقدمها في أمور

كثيرة، فهذا بلا شك استجابة - كما قلت - لحقيقة الدين وتعاليم الفطرة كما شرحها القرآن الكريم، وإذا كان هناك ما يؤخذ على هذه الحضارة؛ فهي أنانيتها وشرهها وتسخيرها النتائج العظيمة التي وصل إليها العلم في إشباع نهم الحيوان الرابض في دم الإنسان ولحمه؛ فهي تعبد التراب وتزدري القيم، أو على الأقل لا تفكر إلا في يومها فقط لا في غدها عند الله.. وهي لا تفكر في الله؛ لأنها ما عرفته أو لأن معرفتها بالله - للأسف - أحاطت بها ظروف رديئة، مثل: مصارع العلماء، والمعركة بين العلم والدين، فكان هذا سببًا في أن العلم نفر أو شرد، وظل الدين يثنيه عن هدفه أو وجهته التي استراح إليها؛ فكان ما كان.

علينا - نحن المسلمين - أن نعرف المآخذ التي تؤخذ على هذه الحضارة، وأن نعرف بالضبط محامدها، ونكون منصفين؛ ماذا أسدت هذه الحضارة للإنسانية؟ وماذا أصاب الإنسانية من عطب بسببها؟ لنتقدم معترفين بالجميل لما أسدته من جميل، وبالدواء لما يعتريها من علل.

القرآن الكريم والعلم

- ظاهرة تعدد الكتابات التي تحاول البحث في القرآن الكريم عن إشارات سبقت العلم الحديث ومكتشفاته ومنجزاته الحديثة، هل هذه ظاهرة متصلة بما يقوله فضيلة الشيخ محمد الغزالي؟

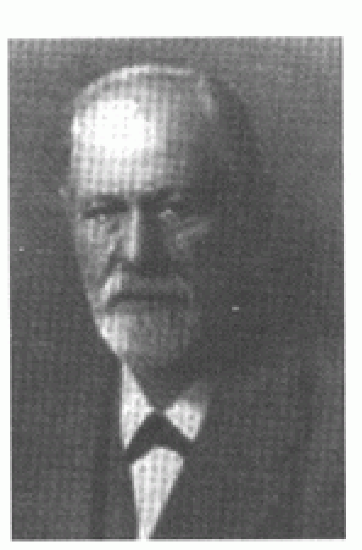
- والله.. أنا لست ممن يفسرون القرآن لخدمة علم الجيولوجيا أو علم الكهرباء أو المغناطيسية أو الصوت أو الضوء أو ما إلى ذلك.

ما تقييم فضيلتك لهذه الظاهرة؟

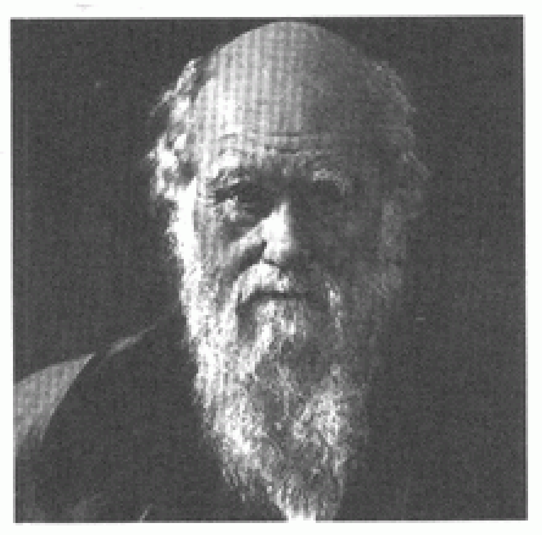
- هذه الظاهرة لها وعليها؛ قد تدل على حماس عند البعض، وقد تدل على أن البعض - فعلًا - يفهم كيف أن القرآن كتاب حقائق؛ لكن الغلو والافتعال، وتحميل اللفظ فوق ما يطيقه ليس من أساليب العلم التي نعرفها من ديننا ومن كتابنا، والقرآن مثلًا ليس كتاب تاريخ يرصد المعارك؛ فيذكر لنا متى وقعت بدقة، وكم اشترك فيها من هنا، ومن هناك، إنما هو يذكر العبر المستفادة. والذي يمكن أن أقوله هو حقيقة قررها علماؤنا؛ ألا وهي أن القرآن كتاب وصف الكون ويستحيل أن يكون في وصفه للكون ما يناقض علمًا مقطوعًا به.

العلم يتضمن نظريات، ومعنى النظرية أنها ظن راجح أو ظن تشير إليه الأدلة؛ لكن هل هو يقين؟ من الممكن أن أقول: نظرية دارون؛ لكن هل نظرية دارون حقيقة علمية؟ لا.. هي ليست بحقيقة علمية؛ بل قاومها الكثيرون، ورأوها وهمًا.. من الممكن أن يقال: نظرية فرويد في العقل الباطن، نعم نظرية؛ ولكن هل الغريزة الجنسية أصل الوجود

وأصل السلوك كما يقول فرويد؟! هذا لم يثبت بعد. فهذه النظريات لها قيمتها كنظرية، قيمة ظنية تُعرض فقط، وبعد ذلك تناقشها الناس، وتقبلها، وترفضها بحقائق علمية، فمن الممكن أن أقول الآن: يستحيل أن توجد حقيقة علمية تختلف مع حقيقة قرآنية.



عالم النفس الشهير سيجموند فرويد.



عالم الحيوان الإنجليزي تشارلز دارون.

أعتقد أن الدكتور الفرنسي الذي أسلم «موريس بوكاي»[1] كان من الذين أكدوا على هذا في مؤلفاتهم.. أليس هذا صحيحًا؟

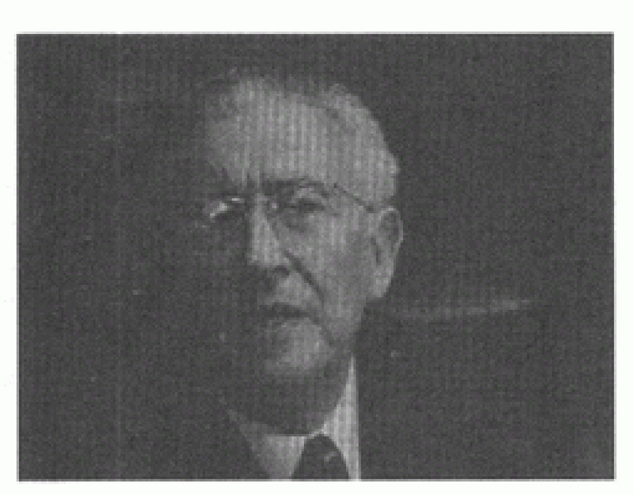
- نعم.. وقد عرفت موريس بوكاي منذ أن كنا معًا أيضًا في ملتقى الفكر الإسلامي الجزائري الأخير، وكنا معًا أيضًا في محاضرات ألقاها في جامعة قطر، وهو رجل عالم، دخل إلى

(١) موريس بوكاي طبيب فرنسي، رئيس قسم الجراحة في جامعة باريس، اعتنق الإسلام عام١٩٨٢م.

الإسلام من باب المعرفة والحق واليقين، ويشبه في هذا أيضًا - وكان معنا في ملتقى الفكر الإسلامي - «روجيه جارودي»[١] الذي تَسمَّى الآن «رجاء جارودي»، وعندما تحدثت معهم وأنا لا أعرف الفرنسية، ولكن كانت الترجمة تقوم مقام الجهل باللغة، وفي نوع من التلاقي في بعض المعلومات والكتابات عرفت أن إيمان هؤلاء الناس حقيقي، وأن معرفتهم بالإسلام صحيحة، وأنهم دخلوا الإسلام من باب البحث العلمي.



المفكر الفرنسي المسلم روجيه جارودي



الجراح والمفكر الفرنسي المسلم موريس بوكاي.

(١) روجيه جارودي، مفكر وفيلسوف فرنسي، ولد في ١٧ يولية ١٩١٣ في مرسيليا بفرنسا، كان يساريًا شيوعيًا معروفًا بتوجهاته المعادية للرأسمالية والمتماشية مع المعسكر الشرقي، ثم اعتنق الإسلام عام ١٩٨٢ وألف عدة كتب عن الهولوكست والأساطير المؤسسة للكيان الصهيوني ومطامعه، وقد حكمت عليه محكمة فرنسية عام ١٩٩٨ بالسجن بتهمة التشكيك في محرقة اليهود في كتابه «الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل».

هؤلاء العلماء عندما وجدوا القرآن يتكلم عن أصل الخلقة وتطورات الجنين في البطن، ولم يقع هذا في كتاب ديني أبدًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]، فهؤلاء الأطباء بدءوا ينظرون إلى الآية، ثم يوازنون بينها، وبين ما عرفوه من أطوار الجنين داخل الرحم؛ فوجدوا أن هذا الوصف الدقيق المطرد الغريب الموافق للحق والواقع، والذي سبق به الوحي الإلهي من ١٤ قرنًا، يدل على أن صاحبه العربي الذي عرفته الصحراء، ولم يعرف إلا الصحراء لا يمكن أن يجيء بهذا من عنده؛ فآمنوا بالإسلام من هذه الناحية، كما آمنوا بالإسلام من جهة أن حديثه عن الكون وعن الحياة يتفق فعلًا مع الخلفيات التي تتكون لدى العالم عندما يكون فلكيًّا، وينظر إلى الكون من خلال مرصده، أو عندما يكون كيماويًّا ينظر إلى الكون من خلال مختبره..

إن الخلفيات التي توجد عند هؤلاء العلماء توجد عند قارئ القرآن؛ لأن القرآن كتاب يفتح الآفاق على الكون، ويبني الإيمان

وينتزع المقدمات من النظر في الكون، وكتاب لا يعرف التقليد الأعمى ولا الفكر الضيق، كتابٌ يأمر الإنسان بأن يسيح في الأرض، ويكون له عقل تجريبي إن لم يتكون له عقل من بيئته العادية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

نعم الآيات كثيرة.. آيات الفكر والنظر أكثر من آيات الأحكام وآيات المعاملات والعبادات.

المسلم مصلح

☜ **هذا قد يعود بنا إلى الخلاف الذي ذكرناه عن الغرق في التفاصيل قبل معرفة الأصول.. فماذا يحتاج الإسلام منا للنجاة من هذا؟**

- الإسلام يحتاج في أيامنا هذه إلى من يضع خارطة، أحيانًا تدخل وزارة من الوزارات فتجد ١٥ خارطة للجهاز الإداري؛ بها الوزير، ثم عدة وكلاء، كل وكيل عنده عدة إدارات، وكل إدارة تتبعها عدة أقسام وهذا يختص بكذا، وهذا يختص بكذا، وهذا يختص بكذا، «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون

شعبة»[١]، فشعب الإيمان كثيرة كيف تضع خارطة لهذه الشُّعب؛ كي تحكم بها المجتمع.

لا بد من الأولويات، وهذا ما قاله العلماء، فعلماء التربية عندنا كانوا على درجة كبيرة من الوعي، وعندما أجد رجلًا كابن القيم يقول: إذا رأيت عالمًا معتكفًا في المسجد، وهو صائم؛ فلتعلمه أنه مخطئ فهذه ليست عبادته؛ وإنما عبادته أن يدور في المجتمع ليعلم الذي يعتكف؛ ولينقل الناس من الظلمة إلى النور لا ليبقى وحده. إذا رأيت غنيًّا يجلس في بيته، ويعزل شره عن الناس كما يقولون - أو كما جاء في بعض الأحاديث - فقل له: لا.. أنت مخطئ، لو صُمت الدهر كله لم يقبل منك صيامك، عبادتك الأولى أن تنفع الناس من ثروتك؛ وأن تجعل غناك وظيفة اجتماعية تفيد بها المجتمع، فلو أن إنسانًا به داء البخل صلى ألف ركعة لم تشفه هذه الركعات من داء البخل؛ إنما يشفيه من هذا الداء أن يزول الداء نفسه؛ فالإسلام دين يصلح النفس البشرية وهو مجموعة أغذية - إن صح التعبير - بمعنى أن الجسم الإنساني - كما يقول علماء التغذية - يحتاج إلى النشويات والسكريات والزلاليات والدهنيات والبروتين إلى جانب

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه.

الفيتامينات وبعض الأملاح والمعادن.. فلو أن إنسانًا استكثر من النشويات وحدها؛ ونسي الدهون أو نسي البروتينات أينفعه هذا؟ لا ينفعه ويبقى معتلًا، ويُطلَب له الدواء؛ لأنه معتل، وإن أكثر الأكل وملأ بطنه كعكًا. كذلك بعض الناس قد يستكثر من نوع واحد من العبادات، والدين ليس عبادة واحدة، إنه عبادات كثيرة منوعة تقوم على تنظيم المجتمع وعلى تزكية النفس، فنوع واحد لا يكفي، فإذا كان الدواء مركبًا من عدة عناصر، فكذلك الدين.. فالذين يحبسهم عنصر واحد في الدين ويعمون عن العناصر الأخرى لا يصلحون لتقديم الدين للناس ولا يداوون به علل الأفراد ولا علل المجتمعات.

شُعب الإيمان

هناك نقطة مهمة ذكرتها فضيلتك الآن ويجب أن نتوقف عندها قليلًا؛ وهي أن الإيمان شُعب كما جاء في حديث الرسول ﷺ أن الإيمان بضع وسبعون شعبة، وهذا يقتضي أن نرتبها في أولويات؛ لكي لا نتبع الشعبة الأخيرة ونركز عليها فقط، وهي إماطة الأذى عن الطريق، ولو أنها مهمة أيضًا.. فما ترتيب هذه الأولويات؟

- تكملة الحديث هكذا: «الحياء بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة؛ أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق،

والحياء شعبة من الإيمان»[١]. فالحديث ذكر ثلاث شعب؛ رأس الإيمان، وهو توحيد الله، والمقصود بالتوحيد هنا أن التوحيد كما قيل: عملة من وجهين وجهها الأيمن مثلًا الله واحد، والوجه الآخر كل ما تطلبه الوحدانية من كرامة للإنسان وضمانات لحقوقه، بمعنى الله واحد فلا أعبد غيره، ولا أحني صلبي إلا له، ولا أذل إلا في ساحته، ولا أتوكل إلا عليه، ولا أخشى ولا أرجو إلا ربي، هذا يجعل الإنسان عندنا إنسانًا آخر غير الذي نعرفه في الإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام: «**بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى يضله، بئس العبد عبد رغب يذله**»[٢]، يعني الإنسان الذي عبد رغبة أو رهبة، فهذا إنسان فقد كيانه، إنسانٌ عبدُ شهوةٍ تملكه وليس عبدَ حقيقةٍ.. فعندما أعتمد على الله وحده، أتوكل عليه وحده.. أعتز به وحده.. أستمد العون منه وحده.. وعندما أشعر بأن أي إنسان مهما كان غنيًّا فأنا غنيٌّ عنه، ومهما كان قويًّا فأنا لا أخشى قوته، فهذا الإيمان هو الإيمان الحقيقي؛ لأن التوحيد هنا ليس كلمة

---

(١) رواه ابن حبان.

(٢) رواه الترمذي.

تجري على اللسان، وتمرق من بين الشفتين، وليس لها ظل من مرتكزات نفسية قوية.. لا.. هذا معنى أن الله واحد، هذا معناه أن ما عداه عبد له، ومعنى أن ما عداه عبد له، أن ما عداه لا يملك أن يبت لي في أمر لن يصدر في حياته قرار إلا إذا أمضاه الله ﴿ **مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ** ﴾ [فاطر: ٢]، ولذلك ليس هناك أقوى من المؤمن إذا وحد ربه توحيدًا حقيقيًّا.

إذن لو أعدنا ترتيب الأولويات؛ فسنضع شعب الإيمان، ونضع الأولويات ونتبع أولها.. أليس كذلك؟

- أولًا: «لا إله إلا الله» وما ينبثق منها من أخلاق مثل التوكل على الله، والاعتماد عليه والخشية منه، والانتصار بالله والانتصار له. ويليه مباشرة بعد هذا حق الله، وحق الناس في إيتاء الزكاة، دائمًا.. الإسلام يمزج ما بين الاثنين؛ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهما ركنا الإسلام الأوليان والسبب أن الله خلقني، ومن حق الخالق أن يُعبد، وأنا أستمد حياتي منه لحظة بلحظة، فلِمَ لا أصبح فأحيِّيه لو كان لي جار بيني وبينه مودة فأقول له: صباح الخير؛ إذ كيف أستيقظ من نومي، دون أن

أحيي الذي رد إليَّ روحي وهو الله، لماذا لا أحييه فأتوضأ وأقوم بين يديه، وأقول ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ [الفاتحة: ٢، ٤]، إلى آخر الصلوات التي طلبت مني.. وهذا شعور حسن في تحية من أسدى الجميل الواحد، فعندما يصنع له إنسان عادي معروفًا، يكون كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجّبا

فإذا كان الله وليُّ كل نعمة، ومصدر كل فضل، و مشرق كل نور ومبعث كل خير؛ فكيف أنساه؟! يجب أن أؤدي حق الله عليَّ فأصلي وبعد ذلك البشر.. إذا كان الله قد أعطاني لماذا أبخل؟! فالذي جعل المبادئ المنحرفة تنطلق في الأرض هو البخل، هو الأنانية، هو الشح الذي جعل في بعض البلاد الفقراء يقاتلون الأغنياء الذين شحُّوا بأموالهم، والإسلام قاتل مانعي الزكاة حتى يمنع هذه المأساة وأمر بأن تخرج الزكاة.

اتقاءً للصراع الطبقي؟

- نعم هو اتقاء للصراع الطبقي، ومع هذا فقد قلت في بعض ما كتبت: إن الزكاة حق الفقير العاجز، أما حق الفقير القادر

فعليـه أن يعمـل. ولا يجـوز إعطـاؤه كـما قـال عليـه الـصلاة والسلام: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة سوي»[١]. يعنـي طالما أن الإنسان عضلاته سليمة، وحواسـه سـليمة، وقدراتـه كاملة، فلماذا يمد يده؟ يجب أن يعمل وعلى المجتمـع أن يعينـه على العمل، وعليه أن يجد عملًا.. والحقيقة، أنني عنـدما أنظـر في بعض المجتمعات الغربية أجد أنها تعطي إعانة لمـن أُرغمـوا على البطالة، ففي أمريكا مثلًا وفي إنجلترا وفي البلاد الأوربيـة المحترمة عمومًا مَن فقـد العمـل، وجـد لـه العـون، أمـا مـن يستطيع العمل؛ فيجب أن يُوفَّر له العمل فنحن لا نعطي المـال زكاة؛ لكي نعين على البطالة.. لا.. إنما نحن نعطي في طـوارئ العجز والعطل، أما مع القدرة على العمل فيجب على المجتمـع أن يوفر فرص العمل لكل قادر على العمل.

- **الأمر المدهش هو أننا حتى لـو اعتبرنـا في عـصرنا هـذا أن الهـرم مقلوب، وأننا أخذنا شعب الإيمان من آخرها؛ فحتى آخرها وهو إماطة الأذى عن الطريق لا يلتزم به أبناء عـصرنا كـما نـرى هـذه الأيام، وحملات النظافة القائمة تعالج هذا.. ما رأيك في ذلك؟**

(١) رواه النسائي، والمرة هي القوة.

- يؤسفني أن أقول - ولو كان في هذا اتهام لأبناء وطني: إنهم تكاسلوا أو فرَّطوا وإن بعضهم أهان إنسانيته وأهان أمته برغبته عن التزام قواعد النظافة.. ما معنى أن منوَرًا في البيت يمتلئ بالأوراق والفضلات.. هذه جريمة! ما معنى أن الإنسان يجد أمام بيته قمامات وقاذورات، ويستطيع أن يجنبها ويضعها في مكان، ويتعاون مع جاره على مثل هذا العمل! يؤسفني أن أقول: إن النظافة خُلق قبل أن تكون غنى، وإن الفقير النظيف يستطيع أن يغسل ثوبه، وليس هناك أرخص من الماء، ويستطيع أن يزيل عرقه وليس هناك أيسر من الماء. أما أن يكون الإنسان متسخ الثوب أو كريه الرائحة.. أما أن يكون الإنسان قذر الشارع، قذر البيت؛ فهذه أخلاق هابطة والإسلام يكره هذا كل الكره؛ لأن الإسلام بني على النظافة و«الطهور شطر الإيمان»[١]، أي نصف الدين طهارة والوضوء نظافة.. والإسلام لا يريد فقط أن يكون الإنسان نظيفًا؛ بل يكون جميلًا أيضًا؛ فالرجل عندما قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلًا ورأسي دهينًا وشراك نعلي جديدًا... أفمن الكبر ذاك يا رسول الله؟ قال: «لا، ذاك الجمال، إن الله جميل

(١) رواه مسلم.

يحب الجمال»[١]، وكان النبي ﷺ يأمر فيقول: «أصلحوا رحالكم وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس»[٢]. فنحن نريد أن تكون البيئة الإسلامية نموذجًا يقتدي به الآخرون في الوضاءة والجمال.

المؤسف حقًّا أننا نرى مواطنًا نظيفًا أو مواطنة نظيفة جدًّا في بيتها وملابسها و(شياكتها) كما يقال، وبعد ذلك يكون راكبًا سيارة ثم تراه يلقي شيئًا من السيارة - مثلًا علبة سجائر فارغة أو ورقة شيكولاتة - وهنا يظهر عدم الانتماء؛ فهو حريص على تنظيف بيته وملابسه؛ لكن الشارع لا.. فلا يوجد عنده إحساس بالانتماء.

هذا نوع من ضيق الأفق أو من أن الفضيلة لم تكتمل فيه؛ بمعنى أن الفضيلة إذا اكتملت لم تنقسم؛ فالصادق يصدق في كل وقت، وفي كل مجلس، وفي كل قضية وفي كل شهادة .. هذه طبيعة الصدق .. أما أن يكون صادقًا في الصباح، وكاذبًا في المساء فلا.. النظافة كذلك خُلق، فمن كان نظيفًا فإنه يشعر بالاشمئزاز عندما يرى قذارة في

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه أبو داود.

الطريق، لقد بذلت جهودًا مع بعض الجيران لنجعل الميدان الذي نسكنه نظيفًا، فلبّى البعض وكره الآخر أو تكاسل أو تجاهل، وأعرف بعض أقاربي يعيش في عمارات كبيرة ومناورها امتلأت بالأوراق إلى أن غطّت الدور الأرضي، ومعنى هذا أن عقب سيجارة قد يقع فيصنع حريقًا في البيت!! هذا ليس من أواخر شعب الإيمان.. هذا نوع من التبلد يدل على أن الإنسان فقد الحس والإيمان!

هل سنعود؟

فضيلة الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي، لو تواصلنا فيما انقطع من هذا الحوار عن الحضارة الإسلامية العظيمة، وسألناك: لو اعتبرنا أن تخلي المسلمين عن الأسباب التي دفعتهم إلى تصدُّر العالم وسيادته هو الذي أدى بهم إلى التخلف والجمود، فهل لو أخذوا بهذه الأسباب مرة أخرى سيمكنهم علاج هذا التخلف وهذا الجمود؟

- نعم.. سنن الله الكونية قوانينها تنتظم في الكل ولا يستثنى منها أحد، والقوانين العمرانية أو القوانين الاجتماعية تشبه القوانين الكونية؛ بمعنى أننا إذا قلنا: إن الجسم يطفو بنظام

معين، ويغوص في القاع بقانون معين، حسب قوانين الأجسام الطافية؛ فكذلك الأمم تتقدم وتتأخر حسب قوانين اجتماعية دقيقة، ولا شك أن الأمم تتقدم بجدارة وتتأخر بجدارة ورغم أني مسلم فلا أستطيع أن أحابي قومي وأقول إنهم ظلموا عندما تأخروا! بل لقد كان حتمًا أن يتأخروا، ويتأخروا بجدارة؛ لأنهم فقدوا أسباب الصعود، فقدوا القدرة على التحليق، كما ينكسر جناح الطائر فيهبط حتمًا، فنحن لم نستطع أن نقود العالم فتخلَّفنا في آخر القافلة؛ لأن هذا هو المكان الطبيعي لمن يظلمون أنفسهم، ودينهم، وقيمهم ومواريثهم، ويتخلون عن الأمانات الكبيرة التي عاش بها أجدادهم.

لا تقول في أمة الآن يتوحد أعداؤها في مقاتلتها، وتنقسم على نفسها ولا تدافع هؤلاء الأعداء: هل تنهزم سنن الله الكونية، وتنتصر الفرقة على الوحدة، هذا مستحيل، لأنها أمة تفرقت كلمتها، وقبل أن تتفرق كلمتها لم تعرف بدقة كيف تبني مجتمعها.

إن المجتمع الإسلامي الآن لا ينبني على القواعد الإسلامية الأولى التي بيَّنها رجل كأبي بكر عندما انتخب؛ ليكون رئيسًا للدولة،

وصاحب سابقة، وله ماضٍ عريق في خدمة الإسلام، فلما بدأ يذكر العلاقة التي تربطه بالأمة بعد أن انتخب رئيسًا لها، قال: «وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم». لا كبر ولا علو في الأرض ولا عنجهية، ثم يقول: «إن رأيتم خيرًا فأعينوني، وإن رأيتم شرًّا فقوموني». ويقول: «القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له».. هذه قيم إسلامية ترسي العلاقة بين الحاكم والمحكوم، على نحو الموجود الآن في أرقى دول الأرض.

تقصد الديمقراطية؟

- نعم أو ما يسمى في عصرنا الآن بالعواء الديمقراطي.. رجل كعمر يقول: «أنا في مال المسلمين كولي اليتيم، إن استغنيت استعففتُ، وإن افتقرت أكلتُ بالمعروف». أتجد في هذه الكلمة آثارًا من استغلال أو افتيات على المال العام، أو رغبة في تكوين ملكيات خاصة من حقوق الأمة، يستحيل أن يقع شيء من هذا؛ فالأمة الإسلامية نسيت المثل العالية التي قامت عليها في عصرها الأول، ولا شك أن زاوية الانحراف بدأت من قديم؛ لكن عندما تصنع زاوية حادة مع خط مستقيم، فإنه في رأس الزاوية يلتقي الخطان؛ فإذا بدأ الانفراج تكون مسافة الخلف

قريبة؛ لكن مع مرور الزمن تتسع جدًّا بين الحق وبين المنتمين إليه، وبين المطبقين له، وهذا ما وقع في عصرنا؛ فإن المسافة اتسعت جدًّا بين الأصل والتطبيق، أو بين الإسلام والعمل به، والعمل له، فالعمل به أصبح غامضًا؛ لأن الإسلام في مقابل عدم الفهم من مصادره الصحيحة ومن أصوله الأولى، وفي مقابل عدم التطبيق من هذه المصادر، وفي هذه الأصول - أصبح بعض الناس لا يرى حاجة لأن ينتمي له عن طريق جلباب أو عن طريق شكل، بينما الأصول الأولى للمجتمع الإسلامي وللدولة الإسلامية وللحضارة الإسلامية غابت عنه، وهو لا يدري عنها شيئًا.

الأصول الأصيلة التي هي القرآن والسنة، نجد أن بعض الشباب يتشتت فيها مع كتب التراث غير المحققة.. فما رأيك في هذا؟

- كتب التراث جمعت ثقافة أربعة عشر قرنًا، وهي كتب وصَّافة لأمور كثيرة جدًّا، بعضها ليس ثانويًّا فقط؛ بل لعله ثالثي ورابعي وعاشري، وترتيبه الألف، وأنا أحيانًا أقول لبعض الناس عندما يقرءون في كتب السنة الكبيرة: ما تصنعون بهذا؟! يقول لي: كتب السنة؟

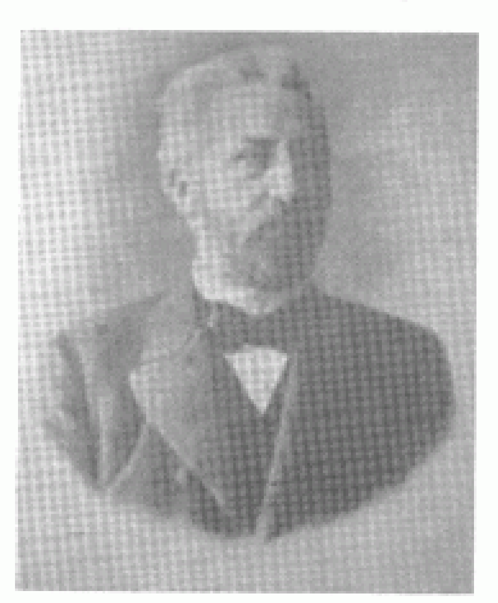
أقول له: هذه كتب تفاصيل، فإذا أردت أن أشرح الإسلام للناس، أشرحه بأي طريق؟! افترض أن رجلًا يريد أن يعرفني بالحضارة الأوربية، هل يجيء لي بلائحة الجمارك أو الجبانات، أو بقانون الضرائب، أو بقانون كذا.. التفاصيل الموجودة في كتب السنة تفاصيل لفرعيات كثيرة، يشتغل بها أصحابها، وهي حق بالنسبة لهم؛ لأنهم يطبقونها، فينتفع بها القاضي والمفتي والمحامي ومن له صلة بهذه الأمور. أما أنتم فأركان الدين أنتم مسؤولون عنها ابتداء وتكلفون بها، وما تسألون عن هذه الأحاديث الكثيرة التي تتصل بفروع يشتغل بها الولاة والدعاة والقضاة، ما دخلكم أنتم في هذا؟

هناك أمثلة للانشغال بهذه الفروع والجزئيات التي تدل على التوهان والتفرق؛ كأن يبحث أحدهم في عدد أجنحة الملائكة، أو أن يصدر كتابًا عن العفاريت، فهذا بالطبع يشتت الشباب، ويضيع حقيقة الإسلام. ما رأيك في هذا السلوك؟

- أنا يخيل إليَّ أن الحرب الاستعمارية المعلنة علينا، والتي يقودها مستشرقون دهاة ومبشرون عتاة لها دخل في ترويج بعض الكتابات الآن.

فضيلة الشيخ الغزالي، نحن لا نريد أن ننحو باللائمة على الآخرين؛ فهل معنى هذا أن العيب فينا؟!

بدون شك، أنا قلت: نحن تأخَّرنا بجدارة؛ لكن عندما أقول: إن أعداءنا الذين يرصدون يقظتنا يريدون أن يشتتوا شملنا، ويريدون أن يثيروا بيننا قضايا تفرق ولا تجمع، وتشتت عن الهدف الحقيقي، وهؤلاء الأعداء كثيرون؛ الشيوعية - مثلًا - ليس عليها من حرج في أن تجري بين المجاهدين الأفغان بعض الإثارات، ولو كانت عصبيات مذهبية أو قبلية؛ لكي تفتت الجبهة التي تقف أمامها، كذلك الجبهات التي تحارب عن الإسلام في امتداد ما بين المحيط الهادي من الفلبين إلى المحيط الأطلسي في المغرب، والسنغال، ونيجيريا، وهذه البلاد، فأعداؤنا أحيانًا يضحكون منا، أو يعبثون بنا، وأنا يؤسفني أن أقول: إن بعض الذين درسوا أو كتبوا كانوا ينقلون أفكار المستشرقين، ولا أحب أن أخوض الآن في هذا المنحى؛ لكن أريد فقط أن أقول: إن أعداءنا واقفون لنا بالمرصاد، مما جعلني، وأنا أرصد ما صنعه «جولدتسيهر»، عندما ألَّف كتابًا عن العقيدة والشريعة في الإسلام؛ ملأه من ألفه إلى يائه بالأكاذيب،


المستشرق جولدتسيهر

فاضطررت أن أذكر ما في الكتاب من دس ضد الإسلام؛ لأني وجدت بعض الكتَّاب المسلمين ينقلون منه ويستشهدون به، كأنه كتاب حقائق، للأسف، هذا نوع ممن يتوهون بنا عن موضوعنا.

هل تذكر فضيلتك الحديث الذي يقول: «إن الله زوى لي الأرض»؟

- نعم الحديث موجود، وهو من أمارات النبوة، حيث يقول النبي ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»[1]. وهذه حقيقة، فإن العالم الإسلامي امتدَّ الآن كما جاء في حديث أحمد بن حنبل: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار»، أيْ: مع مساقط الظلمة والضوء على هذه الكرة سيوجد الإسلام، والآن الإسلام في القارات الخمس، أتباعه فعلًا حوالي مليار من الأنفس؛ لكن هناك مع هذا كثيرون يتبعونه في القارات غرباء في دينهم لا نتحدث عنهم الآن.

---

(١) رواه مسلم.

المهم أن النبي ﷺ دعا الله لما بيَّن له أن دينه سيظهر، وينتشر ويعم، يقول: «إني سألت ربي ﷻ لا يهلك أمتي بسنة عامة»، أيْ: بجدب يهلكهم جوعًا وعطشًا وضياعًا؛ فأجابه إلى هذا، «ولا يسلط عليهم عدوًّا يستبيح بيضتهم»؛ فأجابه إلى هذا، قال: «ولا أسلط عليهم عدوًّا ممن سواهم فيهلكوهم بعامة؛ حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا وبعضهم يقتل بعضًا وبعضهم يسبي بعضًا»[1]. والحديث حاسم ونص في أن أعداء الأمة الإسلامية يستحيل أن ينالوا منها منالًا أو يبلغوا منها مأربًا لو أن هذه الأمة وحدت كلمتها وجمعت صفوفها وتماسكت أمام أعدائها.. إنه مع اختلاف الأهواء والآراء، وشيوع الأحقاد والخصومات، وكره هذه الدولة لتلك الدولة، وهذه الجماعة لتلك الجماعة، وهذا الجنس لذاك الجنس، وذاك المذهب لهذا المذهب، مع هذا فإن الخلل سيشمل هذه الأمة، ومن خلال هذه الفرقة ستنفذ سهام الأعداء ويتسللون بيننا، وهم فعلًا ما ملكوا الأرض الإسلامية إلا بعد أن أحدثوا فجوات عميقة، طورًا بين الحكام والشعوب، وطورًا بين المذاهب المختلفة، وطورًا بين الفقهاء والمتصوفة، وطورًا بين المبتدعين والمتسللين، وطورًا بين المشتغلين بالعبادات والمشتغلين

---

(١) رواه أحمد.

بالسياسة، أي إنهم استطاعوا أن يمزقوا الشمل باصطناع التناقضات.. وكان من الممكن بيقين أن تتعاون هذه الأمة على القاعدة الذهبية المعروفة، فحتمًا الناس ستختلف؛ لكن هذا الاختلاف يمكن أن تحكمه قاعدة «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه».

فلنحمل الأمانة

الداعية الإسلامي الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي، بما أن فضيلتك في هذا الحوار شاهدٌ على العصر؛ فهل يذكرك هذا بالأمانة التي حمَّلها الله ﷻ للمسلمين، وهي أن يكونوا شهداء على الناس كافة، وأنهم مكلَّفون بتبليغ الوحي الأعلى، وتقديم أنفسهم كنماذج عملية للتقوى والصلاح؛ فهل قمنا بهذه الأمانات؟

- هذا موضوع واسع جدًّا، وتفريط الأمة الإسلامية في الأمانات التي ورثتها، يكاد يكون بديهية معروفة؛ لكن الذي يمكن أن ألفت النظر إليه ابتداءً هو الإنسان المسلم، كيف يتكون؟! ما المسلك الذي ينفرد به، ويدل الناس عليه، ويشعر الأقربين والأبعدين أنهم أمام إنسان متميز؟

يعجبني في القرآن الكريم قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]،

فكلمة «فرط»، أريد أن أقف أمامها قليلًا، يقول الناس في بلادنا: الفرط: هو السائب، بلح فرط، يعني: انخلع من العنقود، عنب فرط: انخلع من العنقود، فرطنا كوز الذرة، أي: خلعنا الحب من الأصل الذي تماسك به، فكأن الإسلام يريد أن يعتبر النفس الإنسانية منظمة متماسكة مرصوصة لها مبدأ ونهاية، وأن الإنسان الفاسد، هو الإنسان السائب.. أحب أن ألفت النظر إلى أن كلمة «ساب» كلمة عربية، من «ساب يسيب سائبًا ومسيبًا والتسييب»، كل هذه كلمات عربية؛ فإذا وجدنا حيوانًا سائبًا يمشي في الطريق، لا زمام له، أي أفلت من زمامه؛ فهو ينطلق حتى تدهمه سيارة؛ فتقتله؛ لأنه حيوان شارد لا صاحب له.

الإسلام يرفض أن تكون النفس الإنسانية فَرْطًا أو فُرُطًا، وأن يكون الإنسان المسلم إنسانًا سائبًا، كسبحة انقطع خيطها فانفرطت الحبات، وأصبحت كل حبة في مكان.. لا.. المسلم إنسان منظم في أعصابه وأوقاته وأعماله وأفكاره، وكل ما يمسه من أمور، وهذا معنى الآية؛ كن مع الله، استلهم الرشد، استمد منه العون، عامل الناس بدقة، حاسب على كل صغيرة وكبيرة، أنت في دين يحاسب بالذرة، ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝** ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فلا يحاسب على النية التي لا نراها،

وعلى القصد الذي لا نراه، إلا رب العالمين، يحاسب على كل شيء، فالإسلام يرفض أن نرى هذه النماذج التي ننظر إليها الآن، واحد تائه في الشارع، أين يذهب؟ قد يذهب إلى عمله، هل يفكر في عمله؟ هل يفكر في إتقانه؟ هل يتدبر صورة من صور الأداء الجيد لهذا العمل؛ كي يبرز عمله في هذه الصورة؟ هل يتناول هذه الأمور بإقبال نفس ويقظة عقل؟ أم هو إنسان مخدَّر دائخ نائم؟! الإنسان السائب النائم هذا ليس بمسلم، أما المسلم فهو إنسان دقيق في عمله وفي فكره، إذا تناول موضوعًا رتَّبه، أو دخل دكانًا البضائعُ فيه مضطربة نظَّم لهَا، أو دخل إدارة فوضوية جعلها محكمة، وبالتالي هو معروف البدايات والنهايات؛ لأنه يعرف أن أركان النفاق في دينه: الكذب، والخيانة، وخلف الوعد، والفجور في التصرف، والغدر في العداوة الفاجرة، وما إلى ذلك... فهو في تصرفاته مضبوط، وللأسف عندما أبحث عن هذا الإنسان المسلم الآن لا أجده في بيئات كثيرة.. معنى طالب مسلم أنه تلميذ يسمع إلى المدرس، ويستوعب الحقائق العلمية، وتتماسك في ذهنه فلا تذهب أبدًا؛ لأنه كلما حاولت الذهاب استرجعها بالمذاكرة.. المدرس حريص على نقل نور العلم بين أبنائه أو إلى أولاده؛ فراحته أن ينقلهم من الظلمات إلى النور.. معنى طبيب مسلم أنه يعبد الله.. بالجراحة التي يجريها لمريضه، أو بالكشف الذي يوقعه عليه، أو بالدواء الذي يصفه له، أعني: لا بد أن يكون ضمير الإنسان وعقله في يقظة تامة، عندما

يتصرف إذا كان مسلمًا، فأنا لا أتصور مسلمًا نام ضميره، وليس مات ضميره، كما يقع الآن - والواقع أن معظم النار من مستصغر الشرر - فيجيء إنسان ويقال له: ابن بيتًا.. فيظنُّ أن له صفات، وهي أن تضع في عمود التسليح كذا من الأسمنت، وكذا من الحديد، وكذا من المواد التي تضمن الأمان لأصحابها، فما معنى الاختلاس هنا، وما معنى إقامة أعمدة ليس فيها الحديد المطلوب، وليس فيها الأسمنت المطلوب، وليس فيها المواد المطلوبة؟!! معنى هذا قتل أنفس، وإثارة قلق، وانزعاج أمة، وإنشاء سمعة تردى فيها العالم الإسلامي، خيث إن العمل يخرج من بين يديهم مختلًّا.

وهذا كان مجرد مثال أو نموذج فقط، ولكن إذا أردنا أن نتكلم في قطاعات كثيرة وفي أشياء كثيرة فماذا يكون الوضع؟

- نعم هذا مجرد نموذج.. والحقيقة أنني أشعر بانزعاج عندما أرى أن الأرض تكون مع المسلم قليلة الجودة، أو إنتاجها خمسة أو ستة إردبات قمحًا، أو خمسة أو ستة قناطير قطنًا، فإذا أخذها كافر ملحد زادت الأرض؛ لأنه يخدمها ويبذل عَرَقَه في ريِّها وحرثها، ومنع الأوبئة عنها، لِمَ نصنع هذا بأنفسنا وأرضنا ودينِنا، لِمَ نصنع هذا؟!!

هل نحتاج إلى إعادة ترتيب العقل العربي من جديد، مثلما أشرت فضيلتك..؟

- العقل الإسلامي لا بد أن تتماسك فيه الأصول وأن تبنى بعد ذلك الفروع.. الأخلاق عندنا أساس، وقد سئل النبي ﷺ عن امرأةٍ تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها، فقال: «هي من أهل النار»[(١)]، وسئل عن امرأة تؤدي واجباتها الدينية في أضيق الحدود، ولكنها تحسن إلى جيرانها فقال: «هي من أهل الجنة»[(٢)]، والله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز: ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى** ﴾ [البقرة: ٢٦٣]؛ يعني: قلة الأدب مع العطاء يرفضها الله، اجعل العطاء - يا أخي - مهذبًا، واجعل العطاء معه كلمة حلوة، لفظ حسن جميل؛ لكن عطاء مع دمامة في الوجه وسوء في الخلق.. لا.. لا نريد هذا، فالإسلام غير ما يتصوره المسلمون، الإسلام أن تتقن العمل، أعني قول المتنبي:

ولَمْ أرَ في عيوب الناس عيبًا ... كنقص القادرين على التمام

أنت تستطيع أن تتم العمل بساعة أو بتأمل زائد أو بشيء من التأني، ثم ما الذي يجعلك تخرج العمل ناقصًا؛ لأنك متعجل؛ ولأنك مشغول بشيء آخر، ما هذه العجلة؟ ما الذي يشغلك؟ هذا كله يدل على علل نفسية، والدين صحة نفسية.. وفي يوم ما سئلت عن تعريف الإسلام

---

(١) صحيح الأدب المفرد.

(٢) صحيح الأدب المفرد.

فقلت: عقل يرفض الخرافة وقلب يرفض الرذيلة. فهذا هو ديننا في الحقيقة، والعبادات التي شرعت إنما هي سياج؛ لضمان هذه الحقيقة؛ لأن الأمر كما قال ربنا وهو يتحدث عمن ينجو ﴿ **يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾** ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ما سلامة القلب؟ هل انضباط النبض في العضلة المعروفة داخل الصدر؟ لا.. سلامة القلب هي سلامة الفطرة وسلامة الأداء والبعد عن الغش والزيف والخداع وما إلى ذلك..

وهذا هو الإسلام كمعنى وليس كجغرافيا.. أليس كذلك؟

- بلى.. الإسلام يقوم على النفس البشرية، ولا يقوم على المكان حيث كان.

إذن.. في ختام هذا الحديث الشامل، نصل مع فضيلتك إلى ملخص لشهادتك على العصر في سطر واحد، ماذا يكون هذا السطر، الذي يلخص هذا العصر؟

- عصرنا هذا قد يكون متقدمًا من الناحية المادية؛ ولكنه استغل التقدم العقلي في خدمة أنانيته، وهو لن يرقى ولن تكون له حضارة محترمة إلا إذا استغل هذا التقدم في تزكية ضميره، ورفعة الإنسانية كلها، لا خدمة عنصر أو جزء منها.

الخاتمة

في شهادته كان صادقًا في رغبته في الإصلاح، أمينًا في توصيل رؤيته للواقع من حوله، راغبًا في الوصول للأفضل، قدمنا لكم شهادة الشيخ الغزالي على عصره، آملين معه أن تبين لكم شيئًا من مفردات عصرنا لنعمل معًا للوصول للواقع الأفضل الذي نحلم به جميعًا والذي كان يسعى إليه الشيخ الغزالي حتى آخر أيامه في هذه الدنيا.

وقد أفرد الشيخ في حديثه لواقع فقهنا المعاصر والصورة المثلى التي يجب أن يكون عليها في ظل الصراع الفكري والحضاري الذي كانت أمتنا أحد أطرافه، وتناول بجرأة - كعادته - أمراض أمتنا السياسية والاجتماعية ووضع رؤية غير تقليدية للخروج من أزمتنا التي نعانيها.

الفهرس

الموضوع	الصفحة